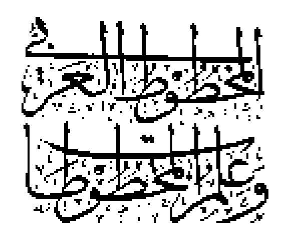
المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 33



المخطوط العربي وعلم المخطوطات

تنسيق

أحمد شوقي بنبين


المخطوط العربي
وعلم المخطوطات

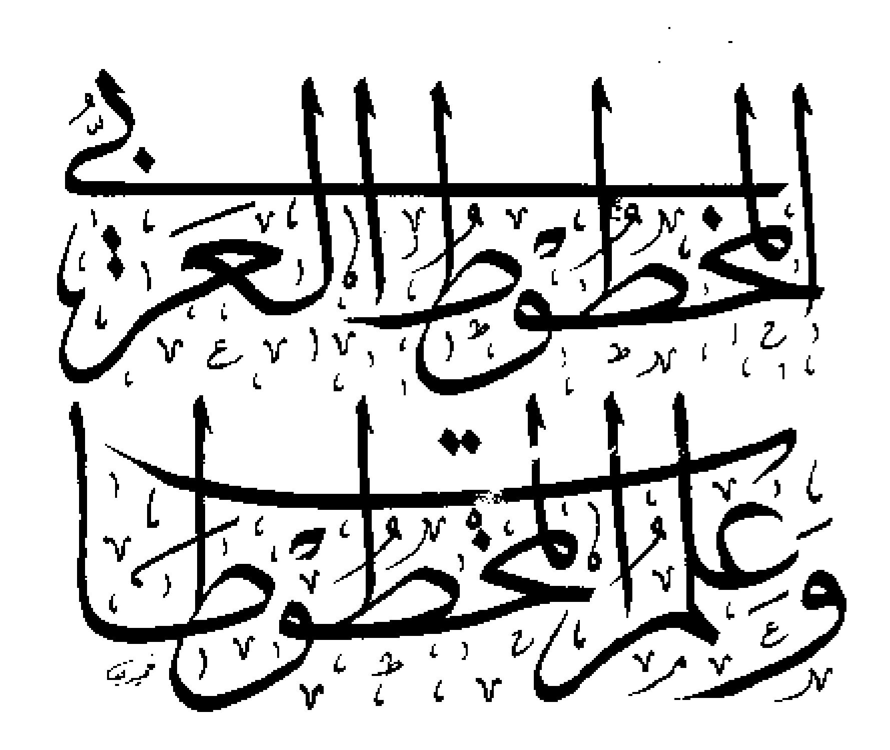


المملكة المغربية

جامعة محمد الخامس

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

سلسلة: ندوات ومناظرات رقم 33



تنسيق

أحمد شوقي بنبين

1994

الكتاب : الخطوط العربي وعلم المخطوطات (ندوة)

منشورات : كلية الآداب بالرباط

الغلاف : إعداد عمر أفا

الخطوط : بلعيد حميدي

التصفيف : أنسيف الزنايدي ـ الهاتف 72.70.66 ـ الرباط

الطبع : مطبعة فضالة ـ المحمدية

الطبعة : الأولى 1994

ردمك : 9981_825_18_2

الإيداع القانوني : 1994/308

التسلسل الدولي : 1113_0377

طبع هذا الكتاب بدعم
من مؤسسة كونراد أدناور

المحتويات

تقديم

تحتضن كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الخامس ندوة دولية في موضوع **المخطوطُ العربي وعلم المخطوطات** أو ما يسمى **بالكوديكولوجيا**. إن دراسة المخطوط العربي على ضوء معطيات علم المخطوطات الحديث موضوع جديد لم يهتم به حتى الآن في معهد أو جامعة، وهذه سابقة علمية يمكن لكلية آداب الرباط أن تعتز بها وتفتخر. إن الكوديكولوجيا تهدف في دراسة المخطوطات إلى شيئين :

أولهما دراسة كل أثر للكتابة في المخطوط باستثناء المتن أو النصّ بالتعبير المعاصر.

ثانيهما البحث في العناصر المادية للمخطوط.

غاية هذا العلم إذن هي دراسة كلّ ما يحيط بالمتن من حواش وتعليقات وتفسيرات وإضافات ووقفيات وكل ما من شأنه أن يساعد على التعريف بالمخطوط وبصاحبه وتأريخه وبمن تملّكه وقرأه ونسخه وبكل ما له علاقة بالمحيط التاريخي والجغرافي للمخطوط، وأخيرا دراسة الوعاء وطريقة صناعته وتركيبه، كالبحث في نوع الجلد والورق والملازم وغيرها من الجوانب المادية والتقنية التي درسها علماء الفيلولوجيا بالنسبة للمخطوط الغربي وحتى بالنسبة للمخطوط العبري. وبقي مخطوطنا العربي يفتقر إلى هذا النوع من البحث والدراسة ينتظر من المهتمين بشؤون التراث من ينفض عنه الغبار لا للاهتمام والاستفادة من متنه ومحتواه فقط ولكن لدراسته كقطعة مادية بصرف النظر عن موضوعه ومادته العلمية.

إن الغاية من دراسة المخطوط دراسة كوديكولوجية هي خدمة النص الذي نحققه ونستخلص منه النظريات والأحكام. كما تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن

عدد من التساؤلات طالما حيّرت الباحثين في مجال التراث. فمثلا ما معنى الكرّاسة أو الكراس التي تستعمل في العربية منذ بداية حركة التأليف؟ هل هي كتاب أو كتيب كما جاء في استعمال القدماء، هل هي عشر ورقات كما جاء في معظم المخطوطات أو إحدى. عشرة ورقة كما جاء في بعضها أو ثمانية كما جاء في البعض الآخر؟

ما هي الفهرسة؟ ما هي حدودها؟ حتى الآن ليس لدينا تحديد نهائي للفهرسة يُجمع عليه الباحثون في مجال التراث. كيْف ظهرت التعقيبة كنوع من الترقيم في المخطوط العربي، وهل كان ظهورها في المخطوط الغربي الوسيط من تأثير المخطوط العربي؟ إن مثل هذه التساؤلات، وغيرها كثير، لا زالت تنتظر من العلماء الكثير من المعاناة والمثابرة والصبر المتواصل في البحث. ولكن أين هو هذا النوع من الباحثين؟ إن المنظمات العلمية والأكاديميات العربية لا تقوم على قدر علمنا بما يتطلبه هذا النوع من البحث والدراسة. إن معهد البحث وتاريخ النصوص الذي أنشىء في باريز لدراسة علم المخطوطات قد أحدثَ قسما خاصا بالتراث العربي، لكنه للأسف لم يدرس حتى الآن الكوديكولوجيا العربية.

إن دراسة المخطوط العربي كقطعة مادية ستمكّن الباحثين من اكتشاف جانب من تاريخ العرب الحضاري ما زال مجهولا. فعلى الرغم من عدم عناية القدماء بهذا الجانب – باستثناء بعض الإشارات العارضة –، فإن المحدثين من الفيلولوجيين وجلهم من الأوروبيين أمثال Moritz وGromann وThomas Arnold وPedersen وإيتنغاوس وتشوكين وبعض المشارقة أمثال المنجد والحلوجي هؤلاء جميعا لم يستطيعوا أن يسدوا هذا الفراغ وأن يكملوا ذلك النقص. إن هذه الندوة على الرغم من تنوّع محاورها فإنها لن تجيب عن كل التساؤلات المطروحة بقدر ما تهدف إلى تحسيس المهتمين بشؤون المخطوطات وكل الذين لهم غيرة على هذا التراث بأن المخطوط العربي وتاريخه لازال حقلا بكرا وأن البحث في عناصر الكوديكولوجيا يمثل المرحلة الأولى والأساسية في عملية نقد النصوص.

إن هذه الكلمات لا تطمح إلى أن تنوب عن العروض التي ستمتعنا بها في الجلسات العلمية المقبلة ثلة من خيرة العلماء والمستشرقين والجامعيين يُعتبرون حجة في مجال علم المخطوطات. فإليهم جميعا أقدم جزيل الشكر والامتنان على قبولهم الدعوة

وتجشمهم عناء السفر. كما أتوجه بالشكر كذلك إلى السادة الوزراء الذين أمدونا بمساعداتهم وإلى السيد رئيس الجامعة وإلى ممثل منظمة كونراد أدناور الألمانية وأخيرا إلى السيد قيدوم الكلية ومساعديه الذين عانوا الكثير من أجل تنظيم هذه الندوة العلمية الدولية. وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خيره ورضاه.

الدكتور أحمد شوقي بنبين

تقنيات إعداد المخطوط المغربي

محمد المنوني
كلية الآداب ــ الرباط

مقدمـة

كان تلقين الخط في الغرب الإسلامي يسير على المحاكاة والتقليد لكتابة المعلم على اللوح الخشبي على خلاف المشرق، وفي مناسبات خاصة يضيف المعلم لتعليم الخط تدريبا أوليا على عمل الزخرفة في الألواح عند «الحذقات» وعطل الأعياد، وكان أول مغربي أشار لذلك هو ابن الحاج في «المدخل»[1] : «وأما تزويق الألواح في «الإصرافات» والأعياد في بعض البلاد فهو من باب المباح الجائز»، ثم استمر الاهتمام بذلك إلى فترة متأخرة، فيقول مربّ مغربي معاصر[2] ضمن أرجوزة موضوعية :

تـزويق الألواح كمـا فـي الـحـذفـات ورمضان جائـز بـلا التفـات

ومن هذه المرحلة بالكُتّاب، يتدرج الذين لهم ميول لإجادة الزخرفة أو الخط حتى ينتهوا إلى غايتهم، ويتعرفوا ــ كذلك ــ على بعض تقنيات عملهم، وهذه التقنيات كاملة ــ في الجملة ــ هي هدف هذه المداخلة حسب التدرج التالي للعناوين الرئيسية :

ــ الدواة والمحبرة.
ــ المداد والحبر.

(1) المطبعة المصرية بالأزهر 1348/1929 : 2/331.
(2) هو العالم الرياضي الرباطي محمد المهدي متْجِنوس، في أرجوزته «هدية المؤدب» : خ. ع، ك 1984/1.

ـ التذهيب والزخرفة.

ـ الرق.

ـ الورق.

ـ الورق الشاطبي.

ـ ملحق 1 : معلومات مكملة عن الرق والورق وما إليهما.

ـ ملحق 2 : كتابات مغربية دون مداد.

ـ ملحق 3 : كلمات اِصطلاحية موضوعية.

ـ ملحق 4 : إفادات موضوعية مقتبسة من تعريف بمخطوطة من «صحيح البخاري».

إشــارات :

خ.ع،د : قسم حرف الدال من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ.ع،ك : قسم حرف الكاف من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ.ع،ق : قسم حرف القاف من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ.ع،ج : قسم حرف الجيم من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ.ي : خزانة ابن يوسف بمراكش.

خ.س : الخزانة الحسنية بالرباط.

ط. ف : المطبعة الحجرية الفاسية.

الدواة والمحبرة

الدواة في استعمال المشرق جهاز تتوزع داخله جملة من **الآلات** المساعدة بينها المحبرة، وتستوعب هذه ـ مفردة ـ ثلاثة أصناف : الجونة وهي الظرف؛ والحبر واللّيقة[3].

وفي المغرب لا يعرف جهاز الدواة بمصطلحه المشرقي[4]، وإنما تترادف الدواة

---

(3) «صبح الأعشى» للقلقشندي، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1331/1913 : 2/434 ـ 458.

(4) هناك رسالة باسم «التيسير في صناعة التسفير»، من تأليف بكر بن إبراهيم بن المجاهد اللخمي الإشبيلي نزيل فاس ومراكش، والمتوفى عام ثمانية أو تسعة وعشرين وستمائة، وقد أخرج نصها الأستاذ المرحوم عبد الله كَنون، ثم نشرها في «صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد» : المجلدين السابع والثامن «مزدوجين»، سنة 59/1960، وورد بهذا المصدر ـ ص 39 ـ فقرة صغيرة ضمن أنواع التسفير،

مع المحبرة، فيطلق الاسمان على كل منهما، على أن اسم الدواة هو الذي اشتهر مع مر الزمن، وفي «حلية الكتاب»[5] : «الدواة هي المحبرة التي يكون فيها المداد».

وفي العصر الوسيط كان بين المحابر أنماط تعد برسم الرؤساء والأعيان، فتصنع من الأبنوس أو العاج، ويتفنن في إتقانها وتوشيحها بالتذهيب حلية وكتابة، وحينا تكون لها أوعية جلذية منقوشة لحفظها. وفي صدر ق 19 يقول الرفاعي[6] عن الدواة : «ينبغي للكاتب أن يعتني بها؛ فيتخذها من معدن لطيف غير غواص، كالبلّور والودع وشبههما، وقد رأيتها ــ يقول الرفاعي ــ عند بعض الكتبة من البلور».

ومن الواضح أن القصد ــ في المغرب ــ بالمحبرة والدواة رديفتِها : هو وعاء حبر الأسود؛ فإذا كان المداد ملونا فظرفه يحمل اسم «المجْمع»، ويصنع من الخزف مستطيلا أو مربعا مع نتوء في جوانبه، وتتعدد تجويفاته بعدد الأصباغ المطلوبة، وقد كان هذا الجهاز معروفاً بالمغرب من المائة الهجرية 8/«14»، فيوجد شعر من بيتين لابن القراق السبتي، مما رسم على مجمع للأقلام حسب تعبير المصدر المعني[7]. ثم استمر استخدامه إلى فترة قريبة، وتوجد نماذج منه معروضة بالمتاحف المغربية.

القلم

والغالب فيه أن يتخذ من القصب، وقد يتخذ من نبات غيره، ومن الذهب والفضة أو النحاس المذهب[8]، وقد جرب خطاط مغربي[9] الكتابة بقلم الذهب فوجده ثقيل الجري، لا يأتي معه الخط على صورته الكاملة، ويثقل اليد، وبما أن قلم

= فيقول فيها المؤلف : «وعمل أقسام المحبرة السرجية» بالسين المهملة والجيم. فهل كلمة السرجية محرفة عن المشرقية، نظير بعض التحريف في مواضع أخرى من الرسالة، حتى إذا تأكد هذا الإصلاح يكون هذا المصدر. يشير لوجود الدواة المشرقية بالمغرب الموحدي، على أن الحسم في هذا الموضوع، إنما يتم مع تعدد نسخ الرسالة التي اعتمد ناشرها على مخطوطة وحيدة لم يعثر على سواها.

(5) الاسم الكامل : «حلية الكتاب ومنية الطلاب»، تأليف أحمد بن محمد بن محمد الرفاعي الرباطي : خ. ع. د 254، وقد شرح بها أرجوزته في قواعد الخط المغربي باسم «نظم لآليء السمط في حسن تقويم بديع الخط».

(6) «حلية الكتاب» مصدر سابق.

(7) «مقنع المحتاج في آداب الأزواج» لأحمد بن الحسن اِبن عرْضون : خ. ع، ك 1026.

(8) محمد المنوني، «تاريخ الوراقة المغربية»، مطبعة النجاح الجديدة ــ الدار البيضاء، 1991، ص. 33، 54.

(9) هو الرفاعي حسب «حلية الكتاب»، مصدر سابق.

القصب كان غالبا في الاستعمال، فقد صار موضوع اهتمام خاص باستجادة عمله وإتقان بريه، وبلغ من الجودة في صدر ق 19 إلى حد أنّ وراقا من فاس (عبد العزيز الحلو) استطاع أن يكتب بقلم واحد نسختين من صحيح الإمام البخاري : واحدة خماسية التجزئة، والأخرى في سفر واحد(10).

المقلمة

وهي التي توضع فيها الأقلام، وقد كانت تصنع في المغرب الموحدي من جلد، ووصف في رسالة «التيسير في صناعة التسفير»(11)، طريقة إعداد رقعة جلدية جامعة، حيث تشتمل على مخبإ للأقلام من واحد إلى أربعة على الأكثر، ومعه ـ في غشاء واحد ـ مخبأ للسكين والمقرضين، وتكون الرقعة مزدانة بنقشها من ظاهرها الذي يكون وجها للجميع، بينما يحلى الوجه الآخر بيسير من النقش.

وعلى ذكر السكين والمقرضين في هذه الفقرة، فإنني اكتفيت بهذه الإشارة عن إفراد الجهازين بالذكر على حدة، على أن الشيوخ المهتمين كانوا لا يستحسنون استخدام السكين عندما يتعلق الأمر بتصحيح الكتاب على الشيخ، وفي هذا يقول القاضي عياض(12) :

«كان الشيوخ يكرهون حضور السكين مجلس السماع حتى لا يبشر شيءٌ، لأن ما يبشر منه قد يصح من رواية أخرى...».

المداد والحبر

المداد ما يكتب به في أي لون وكذلك الحبر، غير أن هذا الأخير يتميز بأن الغالب عليه هو لون السواد.

وعن استعمالات المداد بِصنفيْه، نشير إلى أننا أمام غياب للمصادر الوطنية

(10) حسب رواية اِبن الوراق، عبد الرحمن بن عبد العزيز في كناشته، ص. 102، وقريب من عمل هذا الأخير وقع للخطاط المصري اللامع : عبد الرحمن اِبن الصائغ المصري، فيذكر في خاتمة «مصحفه» بدار الكتب والوثائق المصرية : أنه كتبه بقلم واحد في مدة ستين يوما فما دونها، حسب رسالة «خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة...»، تأليف د. محمد بن سعيد شريفي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر 1975/1395، ص. 181.

(11) مصدر سابق، ص. 37.

(12) «الإلماع»، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1970/1389، ص. 170.

المختصة. ولهذا سنلجأ ـ في استكشاف أغلب معلوماتنا ـ إلى الباقي من ذخائر المخطوطات المغربية، وخصوصا المصاحف الشريفة.

فقد كان الشائع في تخطيطها، كتابتها بمداد الحبر الحالك أو الباهت قليلا، وتارة بمحلول قشرَ الجوز. وقد يصنع الحبر من مادة عطرة، كواقع مصحف أبي الحسن المريني بالقدس الشريف، ثم مصحف المنصور السعدي في الإسكوريال، فكان مداد الأول من فتيت المسك وعطر الورد، وربما أضيف لهما في بعض الأحايين الزعفران الشعري[13]، بينما أقيم مداد المصحف السعدي من فائق العنبر، المتعاهد السقي بالعبير المحلوك بمياه الورد والزهر[14].

وفي مطالع رسالة من السلطان السعدي محمد الشيخ الثالث وردت هذه الفقرة :

«... والقصد بهذا المرقوم الذي اختطته أقلام الصندل، في صَكٍّ محبّر بحبر استعار نشر ذكائه العنبر والأذفر والمندل، إلى الزهر الذي طاب أصله وفرعه...»، : «مجموعة رسائل» خ،ع،ق 172. أثناء مجموع : ص. 162.

ومن جهة أخرى، فإن مداد الحبر يتنوع تبعا لطبيعة المادة المكتوب فيها :فللمصاحف مدادها، وللرق مداده، وللورق مداده[15].

أما عن تلوين الأمدة عبر العصر الوسيط ومعظم الحديث، فقد كان طبقة عالية في تنويع الألوان وتناسبها، ولدينا في هذا الصدد ما ينيف على عشرة مصاحف مغربية[16]، وفيها يتنوع التلوين في حركات ونقط الآيات ووضع الفواصل، وعند زخرفة الدوائر الهامشية، وهي تساير تجزئات المصحف الشريف إلى الأخماس والأعشار والأحزاب وأجزائها، وفواتح السور والسجدات... فضلاً عن تلوين الأطر المنوعة، وأخيراً اللوحات الزخرفية في بداية المصحف وخاتمته.

والألوان في هذه الأعمال، فيها مداد اللك، واللون الأخضر الناصع أو

---

(13) عبد الله مخلص، «المصحف الشريف»، «صحيفة الفتح» السنة 5، العدد 237، ص. 14.

(14) «تاريخ الوراقة المغربية» مصدر سابق، ص. 85.

(15) «تحف الخواص» للقللوسي ءاتي الذكر وشيكا : صدر الباب الأول منه.

(16) سيأتي مسرد لهذه المصاحف الكريمة واحدا واحدا عند موضوع «التذهيب والزخرفة».

الباهت، والأزرق والأصفر الباهت ومحلول الذهب...[17].

والظاهر أن صدر العصر الحديث شهد محاولة لازدهار هذه المادة. ومن الإشارات لذلك انتساخ كتاب موضوعي «غميس» بالمغرب السعدي، وكان بين موضوعاته طرق صناعة الحبر وأساليب تلوين الأمدة، في نفس طويل استوعب طرائق الأندلسيين في هذه الأعمال، وأضاف لها من مجربات المشارقة وتجاريب المؤلف الخاصة، والقصد إلى رسالة «تحف الخواص في طرق الخواص»، تأليف القللوسي : أبي بكر محمد بن محمد بن إدريس القضاعي الأندلسي الإسطْبُوني، ت 707 (1308)، فتوجد منها نسخة مؤرخة بمنتصف جمادى الأولى 993 (1585)، كتبها ـ من مبيضة المؤلف ـ ناسخ لم يذكر اسمه : خ. س 8998.

ويضاف لهذا المصدر كتيب يحمل اسم «صناعة تسفير الكتب وحل الذهب» تأليف أحمد بن محمد السفياني[18]، وقد ألفه عام 1029 (1619)، فيأتي بين موضوعاته صفة الكتابة ـ بالذهب ـ في الكاغظ وعلى الجلد.

وقد امتد الاهتمام بالأمدة إلى القرن 19، والإشارة ـ أولا ـ إلى محمد بن القاسم القندوسي الفاسي، ت 1278 (1861)، فيذكر أنه أنفق في مداد بعض أعماله نحو عشرة من الريال[19] (بصرف وقته).

ولمحمد الفاطمي بن الحسين الصقلي الفاسي، قطعة شعرية عدد فيها ألوان الأصباغ الموزعة بين تجويفات «مجمع» للنساخة، وكتبها على غطائه[20]، وقد كانت وفاته عام 1311 (1893).

حتى إذا انتهينا إلى منتسخات السلطان الحسن الأول نجدها تزخر بمتنوعات الألوان، في كتابتها وأطرها وزخارفها، مما تحتفظ به الخزانة الحسنية.

* * *

---

(17) عن تفاصيل هذه الألوَان يرجع إلى محمد المنوني : «تاريخ المصحف الشريف بالمغرب»، «مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة»، ج 1، مج 15، 1969، ص. 20 ـ 37.

(18) انظر عن هذا الكتيب «تاريخ الوراقة المغربية»، مصدر سابق، ص. 86 ـ 87.

(19) «المفاخر العلية» لعبد السلام اللجائي الفاسي، خ. س 460.

(20) ضمن ملف خ ع، ك 74، مع قطعة من ديوان الشاعر، كانت في الخزانة الأحمدية بفاس.

وإلى هذه الأمدة نبرز تركيبا يكتب به، فتظهر الكتابة في ألوان مختلفة حسب الشعاع الذي تقرأ فيه، وذلك ما يطرف به المقري[21] في هذه الفقرة : «وحكي أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة في ورقة بيضاء، إن قرئت في ضوء السراج كانت فضية، وإن قرئت في الشمس كانت ذهبية، وإن قرئت في الظل كانت حبرا أسود...».

وأخيرا نشير إلى حِبر السُّماق. ونادراً ما كان يكتب به على الورق. على أن طبيعته هي الكتابة به في الألواح لحفظ القرءان الكريم وغيره.

المرملة

وهي وعاء الرمل الذي تنشف به الكتابة، وقد كان الملوك السعديون يُنَشِّرون توقيعاتهم بسحيق الذهب الخالص، حيث لا تزال مشاهدة في افتتاحيات عدد من الكتب التي أوقفوها على خزانة القرويين وخزانات مراكش.

التذهيب والزخرفة

تُعتبر أواخر ق 6 (12م) البداية المغربية المعروفة لتذهيب وزخرفة المخطوطات : كتباً وتسفيرا، مع العلم باستقلال هذه الزخرفة عن نظيرتها المشرقية، وارتباطها بالطريقة الأندلسية. ويمدنا العصر الموحدي بأربعة نماذج من هذا العمل : تذهيبا ونمنمة.

وننطلق ــ أولا ــ من نسخة رقية من «محاذي الموطا» للمهدي اِبن تومرت وما معه من «التعاليق»، فيأتي في ختامه : «وكتب وذهب بمدينة فاس حرسها الله» وكان تمام جميعه في الثاني عشر من صفر، عام ثمانية وثمانين وخمسمائة (1192).

ويصف اِبن طفيل عمل عبد المومن لتسفير «المصحف العثماني»، فيذكر أنه «كسي بصوان واحد من الذهب والفضة، فيه صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضا»[22].

وهذا «مصحف» الشيخ الموحدي أبي يحيى بن أبي زكرياء بن أبي إبراهيم[23]

(21) «نفح الطيب» للمقري، المطبعة الأزهرية المصرية، 1302 هـ، 510/2.
(22) المصدر الأخير، 287/1.
(23) هو وزير يوسف المستنصر الموحدي، حسب «البيان المغرب»، جزء الموحدين، دار كريماديس ــ تطوان، 1960، ص. 246؛ وانظر «تاريخ المصحف الشريف بالمغرب»، مصدر سابق، تعليق 5.

تاريخ رمضان 616 (1219). في سفر وحد معظمه مكتوب في الرق وتتخلله حروف مذهبة. وهو مع «محدي موص» من ذخائر خزانة خاصة بمراكش.

ثم ربعة العاهل الموحدي عمر المرتضي. وكان أصلها في عشرة أجزاء، فرغ من آخرها يوم الجمعة فاتح رمضان 654 (1256) بمدينة مراكش، والباقي منها الآن — بين أجزاء وشذرات — موزع بين مكتبة إبن يوسف بمراكش والخزانة العامة ومتحف الأوداية بالرباط[24].

ويبدو أن المذهبين استمروا كَثرة في العصر المريني، فيأتي عند إبن خلدون[25] وهو يذكر «ربعة قرءانية» كتبها — بخطه — أبو الحسن المريني : «وجمع الوراقين لمعاناة تذهيبها وتنميقها».

ومن الزخارف المذهبة الباقية من هذا العصر، شذرات في أربع ورقات رقية من «مصحف» يوسف المريني : خ. ع، ك 2949[26].

ثم معظم «مصحف» أبي الحسن المريني على الورق : في المتحف الإسلامي بالقدس الشريف[27].

وثالثا : كـ«الأحاديث الأربعون النبوية، من رواية الخلافة العلوية»، بخط السلطان أبي عنان[28] على الورق : خ. ع، د 3582.

ويمتد هذا النشاط إلى أيام الشرفاء، فيخلف العصر السعدي أربعة مصاحف على الورق، طبقة عالية، في التذهيب والزخرفة[29].

وفي ترجمة العاهل العلوي مولاي عبد الله، أنه أهدى للروضة النبوية 23 مصاحف مختلفة الأحجام، محلّاة بالذهب منبتة بالدُّرِّ والياقوت، وبعثها مع ركب الحج عام 1155[30] (1742).

(24) عن وصف هذه الربعة يرجع إلى «تاريخ المصحف الشريف بالمغرب»، مصدر سابق، ص. 20 — 24.

(25) «العبر»، المطبعة الأميرية، 1284 هـ، 265/7.

(26) عن هذه الشذرات يرجع إلى «تاريخ المصحف الشريف بالمغرب»، مصدر سابق، ص. 24 — 26.

(27) المصدر، ص. 26 — 27.

(28) قال ابن مرزوق عن هذه الأربعين : «وهي في جملة الكتب المحبسة بجامع القرويين، وهي بخط **المولى أبي عنان رحمه الله**، «المسند الصحيح الحسن»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، 1981/1401، ص. 277 — 278.

(29) موصوفة في «تاريخ المصحف الشريف بالمغرب، مصدر سابق، ص. 28 — 35.

(30) «الاستقصا» للناصري، دار الكتاب بالدار البيضاء، 130/2.

وكان عام 1202 (87–1788) هو تاريخ هدية بعث بها السلطان محمد الثالث إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول، وكان ضمنها «مصحف شريف مذهب مرصع بالألماس»[31].

ومن ذخائر دار الكتب والوثائق المصرية رقم 25 : مصحف كريم كتب برسم الأمير علي بن السلطان محمد 3، وكان محلى ومذهبا على الطريقة المغربية.

وفي عصر السلطان الحسن الأول، يمتد هذا الاهتمام إلى مؤلفات الصنعة الكيماوية والطب، فتحلى وتذهب منتسخاتها في أشكال بديعة،مما لا تزال مجموعات منها محفوظة بالخزانة الحسنية.

وستكمل هذه المحفوظات الحسنية «15» نموذجا من المنمنمات المنوه بها، وبينها «8» أنجزت في العصر الحديث، وهذه تحمل دلالة هادفة على استمرار المغاربة في اقتباسهم من عمل الأندلس بعد نهايتها، وبالتالي تؤكد ترسيخ هذه المهنة بالمغرب الشريفي، مما أفضى إلى اعتبار مزاولتها في الكتب ومشتقاتها عرفا حضاريا لا مناص من الترخيص فيه. وتصنيفه بين ما جرى العمل بتجاوز الخلاف فيه، وذلك ما ينادي به ناظم[32] ما جرى به العمل في فاس :

والكتب بالذهب والتزويق في الكتب والمسجد والتوثيق

ومن جهة أخرى، فإن هذه الاستمرارية جعلت المغرب قاعدة للحفاظ على هذه الصناعة، وتصدير روائعها إلى الخارج، انطلاقا من جهات المغرب الكبير، ومرورا بالمشرق الإسلامي وأوربا وأميركا، وهذه واحدة من أصداء ذلك في ارتسامات مفتي الديار التونسية المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور[33]:

«استتبعت العناية المرينية بتصحيح الكتب وضبطها عناية بتجويد الخط، وتجميل الطوالع، وإظهار التراجم والمقاطع، وإبداع التزويق والجدولة والتلوين والتذهيب؛ وذلك ما ورد في أخبار مصاحف السلطان أبي الحسن، وما وفر لها من ءايات الجلال والجمال.

(31) «درة السلوك» للأمير العلوي، عبد السلام بن السلطان محمد 3، خ. س، 237.
(32) هو عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي الفهري، وأرجوزته منشورة ومتعددة الشروح.
(33) هذه الارتسامات وردت ضمن مقالة للمنوه به، منشورة في مجلة «المغرب» الصادرة عن وزارة الممثل الشخصي عدد 6 – 7 «مزدوج»، دجنبر 1965، ص. 17 – 18.

وبذلك كان للوراقة مكانها السامي من بين مظاهر الحياة الفاسية، وأعانت سعة الحضارة وضخامة الدولة من جهة، ورقة الذوق الفاسي من جهة أخرى، وتأثير الخطاطة والوراقة الأندلسيتين من جهة ثالثة، على أن أصبح الكتاب موضوع عمل فني رقيق، يبدو فيه الذوق السليم، والصناعة الرشيقة، والبذل الواسع. وقد اكتملت لمدينة فاس أسباب الإتقان الفني للكتاب من جميع هذه النواحي، حتى أصبحت تقصد لطلب الكتب من حيث جمال المجلدات ونفاستها، كما تقصد لطلب التأليف المهم والضبط الصحيح، حتى أصبحت الكتب المخطوطة بفاس على تفاوت مراتبها، ذات كثرة غالبة على مخطوطات المكتبتين : **الزيتونة والعبدلية**...

وكان القصد إلى فاس في استجادة النسخ المفننة من الكتب المعتبرة قد نشط هذه الصناعة، وفتح لأربابها مناهج الإتقان، وشحذ أذهانهم لمزيد الإبداع، فانثالت على تونس في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الكتب الفاسية المبدعة في التخطيط، المعجبة في التلوين والتزويق، الباهرة التذهيب، الرائقة التجليد، وبها ازدانت الخزائن التونسية في هذين القرنين : من المصاحف الشريفة، ونسخ البخاري وسائر الصحاح، وكتاب الشمائل، وكتاب الشفا، وكتاب دلائل الخيرات، وكتب اللغة، ودواوين الأدب...».

المصقلة

وهي من توابع التذهيب، وتستخدم لذلك الآلة المناسبة لصقل الكتابة بماء الذهب.

الرق

والآن ننطلق مع الرق في فقرة للقلقشندي[34]. وفيها يلاحظ أن المغاربة ـ لعهده ـ لا يزالون يكتبون المصاحف الشريفة على الرق. ومن معطيات هذه الإشارة أنها تبرز استمرارية الغرب الإسلامي، وضمنه المغرب الأقصى، على استخدامه للرق بعد انقطاع ذلك من المشرق، مع العلم بأن وفاة مؤلف «صبح الأعشى» تأخرت إلى عام 821 (1418). على أن المغرب يتميز إلى جانب الأندلس، بامتداد هذه الظاهرة إلى كتب أخرى غير المصاحف الكريمة. ومن هذه المنتسخات الرقية الباقية بالمغرب :

(34) «صبح الأعشى»، مصدر سابق، 477/2.

ـ قطع من نسخة «الموطأ» المرابطية : رواية يحيى الليثي، موزعة بين خزانة القرويين 605، مع خ ع. ك 2947[35].

ـ «محاذي الموطا» لابن تومرت، في أربع نسخ رقية : واحدة بالقرويين 181، واثنتان خ. ع، ج 840 و1222، والرابعة في خزانة خاصة بمراكش.

ـ كتاب «أعز ما يطلب» واسمه الأصلي هو «التعاليق»، من إملاء ابن تومرت ثم يعقوب المنصور، وهو بذيل نسخة مراكش من «محاذي الموطا».

ـ «البيان والتحصيل» لابن رشد الكبير، خ. ق 2

ـ «الموطأ» رواية يحيى الليثي، ويرق تاريخ الفراغ منه إلى رجب من عام 726 (1326) خ. س 939.

وإلى الكتب عاش استخدام الرق ـ بالمغرب ـ في قطاع الإجازات القرءانية، والوثائق العدلية المهمة، ودام ذلك إلى قريب من بدايات ق 19/13.

ومن الواضح أن هذا الاستعمال للرق يستتبع قيام صناعة لتحضيره، وهو واقع تحتفظ بالإشارة له إحدى حوالات فاس، فتحدد موقع دكاكين الرقاقين بأنها كانت أسفل باب جامع القرويين المعروف بباب الجنائز من زنقة السبيطريين من فاس القرويين.

ويستتبع ـ مرة أخرى ـ قيام صناعة لتحضير مداد الرقوق.

الـــورق

إلى جانب الورق المحلي المصنوع في فاس وسبتة، استخدم المغرب أصنافا من الورق المجلوب[37].

كما أن مغربيا تميز في تحضير النوع الذي صار في أوربا يعرف باسم «ورق اليد» Cartamans، والقصد إلى تقني من جنوب المنطقة : عبد الله بن محمد بن أبي عبد الله السوسي، وقد نزل مصر واشتهر فيها بلقب «الجمال المغربي»، ثم كانت وفاته

(35) ناسخها يحيى بن محمد بن عباد اللخمي، ولا يبعد أن يكون أحد أبناء المعتمد ابن عباد، وبينهم من يحمل اسم «يحيى».

(37) «تاريخ الوراقة المغربية»، مصدر سابق، ص. 21، 33 ـ 34، 57 ـ 58، 171.

الفسطاط عام 808 (1400)، فيذكر عنه السخاوي[38] أنه كان يصنع ـ بيده ـ ورق غاية في الشفافية ويكتب فيه بخطه الدقيق.

وإلى منتصف ق 20، كان فريق من المغاربة لا يزالون يقلدون شكل الكتاب الروماني[39]، فيستمر المدونون لشجرات الأنساب والموثقون للرسوم العدلية على كتابتها في ورق طويل تلصق صفحاته بعضها بالبعض، حتى تتجاوز أنماط من هذا الشكل مقاس المتر والمترين، ولا تزال مجموعات من هذا الصنف مكدسة في إدارة الأملاك المركزية بالرباط، فضلا عن عدد من الأسر.

وإلى هذا اللون من الورق وسابقه، عرفت منطقة سوس تسجيل بعض الكتابات على الأعواد الصغرى أو الألواح، فالوثائق العدلية وما إليها على الأعواد، والقوانين المحلية على الألواح.

الـورق الشاطبـي

ونذيل على عروض الورق، بالإشارة إلى استخدام الورق الشاطبي وما ضاهاه في منتسخات أندلسية ومغربية، حيث تحتفظ الخزانات المغربية من ذلك بذخائر نقتبس منها الروائع الآتية :

1 ـ «مصحف شريف» : ثمانية أجزاء من عشرة، في ورق وردي اللون : خ. ي 431.

2 ـ «الجمع بين الصحيحين» للحميدي في سفرين، على ورق يضرب للون الوردي، بخط أندلسي منقوط على الطريقة المشرقية، كتبه أحمد بن عبد الله بن محمد بن خلف الفهري في دار الحديث الأشرفية بدمشق، وفرغ منه يوم 17 قعدة عام 641 هـ : السفر الأول خ. ع، ك 340، والثاني : خ،ع،ك 216.

3 ـ «الإحياء» لأبي حامد الغزالي : السفر السادس الذي يبتدىء بكتاب ذم الدنيا، بخط أندلسي على أوراق يتنوع تلوينها بين مائل للصفرة أو الخضرة أو الوردي، كتبه ـ دون تاريخ النسخ ـ محمد بن إبراهيم بن محمد بن يعيش الأزدي، وعليه ملكية العياشي أدراق بخطه : خ. ع، ك 511.

(38) «الضوء اللامع»، مكتبة القدسي، القاهرة، 1354 هـ، 57/5.

(39) انظر عن «شكل الكتاب الروماني»، مجلة «الزهراء»، ج 8 مج 2، 1344 هـ، ص. 499.

4 ـ «الأحكام الشرعية الكبرى» لأبي محمد عبد الحق الأزدي الإشبيلي : السفران 2،7، بخط أندلسي على ورق وردي : خ. س 5380.

5 ـ «تأليف في الزكاة» لأبي بكر ابن الجد الفهري، بخط أندلسي على ورق شاطبي، مؤرخ في 26 ذي الحجة عام 698 هـ بسبتة : خ. ع، ق 76.

6 ـ «المحرر الوجيز» لابن عطية : السفر الثالث، معظمه على ورق شاطبي ابتدأ من ص 6 إلى نهاية السفر : خ. س 8912.

7 ـ «إثبات ما لابد منه لمريد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد»، لأبي العباس أحمد العزفي ظنا : الموجود قطعة منه على ورق شاطبي، بها 69 ورقة في حجم صغير : في خزانة خاصة.

8 ـ «التكملة لكتاب الصلة» لابن الأبار : السفر الأول، على ورق شاطبي يميل للوردي : خ. ع، ك 214.

9 ـ «نسخة من السفر الأول» كسابقتها : خ. ع، ك 358.

10 ـ «تاريخ الأنبياء والرسل» لابن القطان الصغير : حسن بن علي الكتامي، على غرار سابقتيها : خ. س 671.

11 ـ مجموعة مؤلفات موحدة الخط، مكتوبة على ورق شاطبي وردي اللون في حجم صغير. وتشتمل على خمس موضوعات :

أ ـ «كتاب الورع» تأليف أبي الحسن علي الأبياري : ص 2 ـ 65، وقع الفراغ من كتابته يوم الإثنين 19 ذي القعدة عام 672 هـ بفاس، على يد علي بن أحمد بن عثمان.

ب ـ «مقالة في السماع وما فيه» لعز الدين ابن عبد السلام القاهري : ص 66 ـ 69.

ج ـ «مقالة في معتقد أهل الحق» لنفس المؤلف : ص 70 ـ 79.

د ـ «مقاصد الصلاة» لنفس المؤلف : ص 80 ـ 92.

هـ ـ «مقالة في الإحسان» لشهاب الدين السهْرَوَرْدِي : ص 94 ـ 96، وقع الفراغ من انتساخها عام 678 هـ، تحتفظ بالمجموعة خزانة خاصة.

ملحق 1
معلومات مكملة عن الرق والورق وما إليهما

اهتم الوراقون المسلمون بتحديد الأسماء أو الألقاب للأرضية التي تقع فيها الكتابة، تبعا للاصطلاح الذي سار عليه المختصون المشارقة أو المغاربة. وأول نموذج لذلك فقرة للقلقشندي[40] يذكر فيها الرق. ثم القرطاس والصحيفة، ويعقب على الأخيرين قائلا : «وهما بمعنى واحد وهو الكاغد».

على أن القرطاس إذا جاء في صيغة جمعه على «قراطيس». يختص بدلالته على ورق خاص، وذلك ما يشير له ابن البيطار[41] عند مادة البردي : «ويتخذ من هذا النبات كاغد أبيض بمصر يقال له القراطيس»، وبهذا الاسم ورد عند الإمام الأندلسي أبي القاسم ابن الأفليلي، في خاتمة نسخة كتبها من ديوان أبي تمام، فيذكر أنه نقلها من «القراطيس» التي اجتلبها أبو علي القالي من شعر أبي تمام بخطه : خ. س 584.

والغالب أن ورق البردي لم يقع استعماله بالأندلس وما إليها، حيث لا تعرف ـ الآن ـ إشارة لذلك بالمصادر المعروفة.

ولابن السّيد البطليوسي[42] في أسامي الرق والورق اصطلاح يقول فيه : «فإن كان الذي يكتب فيه من جلود فهو رق وقرطاس بكسر القَاف. وقرطاس بضمها ... فإن كان من رق فهو كاغد بالدال غير المعجمة، وقد حكي بالذال معجمة، وقد يستعمل القرطاس لكل بطاقة يكتب فيها، ويقال لما يكتب فيه : الصحيفة والمُهْرَق... فإن كان كتابا كتب فيه بعد محو فهو طِرس».

وهنا ينتهي المحتاج له من فقرة ابن السيد، ونعقب بأن الذي استقر عليه الحال في المغرب هو تخصيص الرق بما يكتب فيه من جلود صنيعة، حتى إذا كان المكتوب فيه ورقا يغلب عليه اسم الكاغد.

وننتقل إلى أسماء أخرى تختص بالورق لمّا يدخل في تركيب الكتاب، وننطلق من الصحيفة، فهي اسم للورقة بوجهيها، ثم الصفحة : للوجه الواحد من الورقة،

(40) «صبح الأعشى»، مصدر سابق، 474/2.

(41) «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1291 هـ، 86/1.

(42) «الاقتضاب»، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981، 178/1 ـ 179.

حتى إذا تعددت الورقات تتعدد الأسماء : فالملزمة للورقتين من الحجم الكبير، والكُرّاس : عشرة من نفس الحجم، والجزء بضعة كراريس، وخلال العصر الوسيط كان الجزء ـ في عدد من الحالات ـ يعتبر وحدة من السفر أو المجلد، ومن نماذج ذلك :

ـ نسخة الموطأ المرابطية : 35 جزءا.

ـ أصل أبي علي الغساني من صحيح البخاري : 20 جزءا، وعليه كان تعليق محمد بن أحمد اليفرني الفاسي، الذي شرح فيه غريب الجامع الصحيح، حيث لا يزال التعليق مخطوطا، ومنه واحدة : خ س 1/355.

ـ «نسخة من صحيح مسلم» مشرقية الخط : 29 جزءا تجمعها ستة مجلدات، حسب ابن عبد الملك[43].

ـ «المدونة الكبرى» لسحنون : 64 جزءا.

ـ «النوادر»لابن أبي زيد : 100 جزء.

ـ «طبقات النحويين واللغويين» للزبيدي : 6 أجزاء، حسب مخطوطة خ. س 283.

ـ «جذوة المقتبس» للحميدي : 10 أجزاء.

ـ «الشفا» لعياض : 6 أجزاء.

ـ «إكمال المعلم» لنفس المؤلف : 14 جزءا : مخطوطة خ. س 4037.

ـ «الصلة» لابن بشكوال : 10 أجزاء.

ـ والقائمة لا تزال طويلة وتمتد إلى أخريات ق 14/8، وبالضبط مع كتاب «تخريج الدلالات السمعية» لأبي الحسن الخزاعي، فيخرجه مؤلفه في سفر يقسمه إلى 10 أجزاء: مخطوطة خ. س 1397.

وفي «معالم الإيمان» ط 2 : ذكر الدباغ عند ترجمة محمد بن سحنون أنه ألف كتباً كثيرة تنتهي إلى المائتين. وهنا عقب ابن ناجي قائلا (123/2) : «والمراد بالكتب كما تقول : كتاب الطهارة، كتاب الصلاة، كتاب الزكاة، وليس المراد أن الكتاب الواحد عبارة عن سفر».

(43) «الذيل والتكملة»، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1984، رقم 186.

وعن السفر والدفتر يقول ابن السيد البطليوسي[44] : «ولقد جرت العادة – في الأكثر – أن لا يقال سفر إلا لما كان عليه جلد، وأما الدَّفتر فيوقعونه على ما جلد وما لم يجلد».

وكلمة السفر اصطلاح مغربي. كما يقال عنه المجلد في المشرق، ولا تحديد مضبوط لعدد أوراق السفر أو المجلد. على أن البعض[45] يلوح لتحديد السفر بنحو 150، وءاخر[46] يذكر السفر باسم المجلد، ويلوح لتحديده بنحو 200 ورقة.

فإذا نقص الكتاب وذهب بعضه فهو منخرم. ومن هذا خروم الكتب[47].

وإذا كان السفر يجمع عدة مؤلفات يسمى مجموعا أو مجموعة، وبعض المجاميع الفاسية، تعلم حاشيته العليا بمستطيلات صغيرة وعريضة بمقدار ورقات المؤلَّف الواحد، وتتابع هذه الإشارات مع باقي محتويات السفر.

ومن ألقاب الكتب : المخطوطات «السَّفَرية»، ويقصد بها التي تتضايق كتابتها، حتى يستوعب السفر الواحد بضعة أسفار بالخط المعتاد[48] ليسهل السفر به.

وستكون خاتمة هذه الألقاب للورق الإشارة إلى اصطلاح كان معروفا عند باعة هذه المادة بالمغرب، ولم يختف إلا حوالَيْ منتصف ق 20. والقصد إلى تعبير «يد الكاغد»، لمقدار حزْمة من الورق قدر ما يملأ قبضة اليد، وهو استعمال كان بالمغرب والأندلس من أواخر العصر الوسيط، وورد عند ابن عباد في «الرسائل

---

(44) «الاقتضاب»، مصدر سابق، 185/1.

(45) ترجم اِبن الأبار في «التكملة»، ط. مجريط، 2137، لمحمد بن عبد الحق الكَومي، ولما ذكر شرحه على الموطأ قال : «في عشرين سفرا في نحو ثلاثة آلاف ورقة»، وفي تعبير اِبن عبد الملك : «في نحو العشرين سفرا يشتمل على نحو الثلاثة الآلاف ورقة»، «الذيل والتكملة» س 8 مصدر سابق، عند رقم 118.

(46) في «طبقات الأمم» لصاعد، مطبعة التقدم الحديثة بالقاهرة، دون تاريخ – ذكر المؤلف وهو يترجم لابن جزم، ص. 102 : أن مبلغ مؤلفاته نحو أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

(47) تعبير قديم ورد عند مؤلف «الذخيرة السنية»، ط الجزائر 1920/1339 – لدى ترجمة عبد الرحمن ابن الملجوم، ص. 47، فيذكر عن خزانة كتبه أنها بيعت خرومها بعد وفاته بستة آلاف دينار.

(48) يذكر اِبن عبد الملك من ذلك نسخة سفرية من «صحيح مسلم» كاملا لا تتعدى 173 ورقة، وكانت بخط الحافظ الإشبيلي : مالك اِبن وُهيْب، كتبها – على هذا الشكل – باقتراح ميمون بن ياسين اللمتوني، «الذيل والتكملة»، س 8، مصدر سابق، رقم 186.

ومن هذا النمط فيما يظهر : نسخة من «فتح الباري» لابن حجر ومعها غيره، في سفر كبير يشتمل على 1293 ص بخط دقيق مدمج، كتبه أحمد بن سليمان الغرناطي ثم الفاسي : خ. ع، ج 583.

الكبرى»[49] بهذه الصيغة : «... احتجنا ـ لا محالة ـ للكلام الكثير الذي يكون امتلاء ذلك : **اليد من الكاغيد** الذي وجهتهم به...».

وفي الغالب كان ضبط الاتصال لأوراق المخطوط يساير الرقاص أو التعقيبة حسب التسمية المغربية أو المشرقية، وعند العد لمحتويات الكتاب تعتمد الورقة أو الكراس، ويقال ـ أيضا ـ الكراسة.

فابن حزم يروي عن خزانة الحكم المستنصر بقرطبة أن كل جزء من فهارسها يشتمل على 20 ورقة[50]، ثم يُذكر في إحصاء تصانيفه أنها تتصاعد إلى قريب من 80.000 ورقة[51]، ويُذكَر عن «شرح الموطأ» لمحمد بن عبد الحق الكَومي أنه يصل إلى نحو 3000 ورقة[52]، وينوه ابن عبد الملك[53] بنسخة مغربية من «صحيح مسلم»، ملاحظا أنها ـ بكاملها ـ لا تتعدى 173 ورقة، كما يذكر عن برنامج أبي الحسن بن مومن : «وقفت على نسخة منه ـ بخطه ـ في ثمانية عشر جزءا، أكثرها من نحو أربعين ورقة»[54].

على أن العد للمخطوط بالكراس كان هو الشائع، ومن الذين استخدموه في العصر الوسيط ابن الحاج في «المدخل»[55]، وابن عباد في «الرسائل الكبرى»[56]

= ثم كان في هدية من السلطان عبد الحميد الأول إلى السلطان محمد بن عبد الله سفر واحد يشتمل على صحيحي البخاري ومسلم، والموطأ، والمسانيد الستة، والشمائل، وعمل اليوم والليلة. قال في «درة السلوك»، مصدر سابق : «والسفر الجامع لما ذكر غير كبير الجرم».

هذا إلى أن المحدث الحافظ محمد عابد السندي أوقف خزانة كتبه في المدينة المنورة، وكان بين غرائبها سفر واحد يشتمل على الموطإ، والكتب الستة، وعلوم الحديث لابن الصلاح، مقروءة مهمشة، بخط واضح، قال محمد عبد الحي الكتاني : «وهو سفر لا نظير له فيما رأيت من عجائب ونوادر الآثار العلمية على كثرتها في أطراف الدنيا»، («فهرس الفهارس»، المطبعة الجديدة بفاس، 46 ـ 1347هـ، 123/2).

(49) ط. ف. 1320 هـ، ص. 116.
(50) «التكملة»، ط. الجزائر، رقم 622.
(51) التعليق 46.
(52) التعليق 45.
(53) التعليق 48.
(54) «الذيل والتكملة»، س 5، مطبعة سُمَيَّا، بيروت، رقم 525.
(55) مصدر سابق، 308/4.
(56) مصدر سابق، ص. 146، 149. ومن الجدير بالذكر أن نشير هنا إلى استعمال ءاخر للكراريس بصيغة الجمع، فتستخدم ـ بالأندلس والمغرب ـ للدلالة على الأراجيز المتعلقة برسم القرءان الكريم وضبطه

ويستمر الحال على ذلك خلال العصر الحديث، ثم إلى المؤلفين المتأخرين، وفيهم محمد عبد الحي الكتاني في «فهرس الفهارس»، وعبد السلام ابن سودة في «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، فيعدون بالكراس أو الكراسة، على أن هذه الأخيرة مؤنثة الكُراس.

أما نوع الحساب لأوراق المخطوطات المرقمة، فكان يُستعمل الغباري المغربي. وفي أواخر ق 19 صار البعض يختار الترقيم الهندي، على تصرفه في رسم بعض وحداته.

وفي إحدى المنتسخات الأندلسية (ق 12/6 ظنا)، يلاحظ ترقيم أوراقه بالقلم الروماني المتمغرب (القلم الفاسي)[57]، والقصد إلى سفر من كتاب «المسالك والممالك» للبكري في مخطوطة خاصة.

وهذا القلم يعتمد ـ أيضا ـ في مؤلفات مغربية من العصر الحديث، فتستخدمه لتوقيت تاريخ الفراغ من التأليف أو الانتساخ.

أما حساب **أبجد** فلا يستعمل إلا في جداول مؤلفات الفلك ومشتقاته. وقليلا في الرياضيات، كما توقت به الأراجيز التاريخية، مثل «وفيات الفشتالي» وذيولها، و«زهرة الشماريخ» للفاسي، وفي المواقيت : «المقنع» للميرغيتي، وسوى ذلك.

المسطرة

ومن لواحق الورق تنظيم سطوره بواسطة جهاز المسطرة، وهي لوح تلصق به خيوط على عدد السطور المطلوبة، وتتناسق فيما بينها حتى تكون متساوية الأبعاد، ثم يوضع فوقها الورق المعني، ويضغط عليه ـ باليد ـ حتى ترتسم فيه السطور الملصقة على المسطرة. قال في «حلية الكتاب» :

«وفن جملة ءالات الكتابة المسطرة للكاغيد، فتكون من لوح صاف، وينبغي

= وأدائه، مما يقرأه الولدان في الكتاتيب، وقد كان هذا معروفا في الأندلس، حسب «الذيل والتكملة»، س 8، مصدر سابق، ص. 132، ثم في المغرب حسب أبي حامد محمد العربي الفاسي في «مرءاة المحاسن»، ط. ف، ص 148.

(57) في جواب لقاضي فاس إبراهيم بن محمد بن إبراهيم اليزناسني : «إن الرشم الرومي قد استفاض بين المسلمين حتى صار كسائر رسوم المسلمين، كأشكال الغبار وغيرها من المصطلحات» («المعيار» للونشريسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401/1981، 10/198 ـ 199).

أن تكون على زوايا قائمة ذات امتدادين طولا وعرضا، وجعل سعة الطرة اليمنى من جزء، والفوقانية من جزءين، واليسرى من ثلاثة أجزاء، والسفلى من أربعة».

مِـلـزَم الكتب

ويسمى بمحمل الكتب، وكرسي القراءة، وعود النساخة. وحمار الكتب[58]، وهو محمل من لَوْحَيْنِ تسد أوساطهما فيفتح ويطوى، ثم يوضع عليه الكتاب للانتساخ أو القراءة ويسند جانباه إلى لوحي الملزم.

وللسان الدين ابن الخطيب[59] في وصف مِلزم :

ياحسنه من ملزم آثـاره	لذوي الوراقة أحسن الآثـار
وكأنـما الكراس طرف أشهب	شدوا على شفتيه عود زيـار
وكأنما قلم الكتاب بصفحه	مَكْوىً وذاك النفط نفط النـار

ملحق 2
كتابات مغربية دون مداد

والقصد إلى تنظيم كان معروفا في عصر الموحدين وصدر أيام بني مرين، في شارة حازمة لتمييز الكتب الموقوفة، فيرسم على السفر المعني كلمة «حبس» بالحرف المغربي، بواسطة ثقوب متتابعة بالإبرة أو شبهها، حتى ينفذ الثقب لسائر أوراق الكتاب، وهذه سبعة نماذج من ذلك :

أ ـ ثلاثة أسفار من «مصحف شريف»، مكتوبة ـ في الرق ـ بالخط الكوفي القديم : خ. ع، ج 1.

ب ـ قطع من «مصحف شريف» بالخط الكوفي : خ. ي 1/620.

ج ـ أجزاء مختلفة من «مصاحف» رِقِّيَّة : خ. ي 1/619.

د ـ جزءان من «مصحف كريم» : خ. ي 5/619.

(58) هكذا كانت تسميته عند عامة فاس، حسب «الذهب الإبريز» تأليف أحمد بن مبارك السجلماسي، المطبعة الأزهرية بمصر، 1346، ص. 149.

(59) «الإحاطة»، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 1397/1977، 514/4.

هـ ـ جزء من «مصحف شريف» : خ. ي 4/431.

و ـ شذرات من «ربعة قرءانية» : خ. ع، ك 2949.

ز ـ «الموطا» في نسخة رقية من رواية يحيى بن يحيى الليثي عن الإمام مالك : خ. ع، ج 708.

ملحق 3

كلمات اصطلاحية موضوعية

يتخلل هذه التقنيات التي نعرضها مجموعة من الكلمات الإصطلاحية. وقد تبينا ـ سلفاً ـ طائفة منها؛ وفي هذا الملحق نستدرك بقية منها :

أ ـ **العمل أو العملية** : تستعمل كلتا الكلمتين ـ على التناوب ـ للدّلالة على الزخرفة في الكتب[60].

ب ـ **الرَّبعة** : في تعبير محمد العربي الفاسي[61] : «أن المراد بالربعة صندوق مربع الشكل من خشب، مغشى بالجلد، ذو صفائح وحلق، يقسم داخله بيوتا بعدد أجزاء المصحف، يُجعل في كل بيت منه جزء من المصحف، وإطلاقها على المصحف مجاز».

وفي «القاموس وشرحه»[62] : «وأما الربعة بمعنى صندوق فيه أجزاء المصحف الكريم، فإن هذه مولدة لا تعرفها العرب، بل هي اصطلاح أهل بغداد...».

ج ـ **المصنف والمؤلف** : يفرق بينهما أبو العباس أحمد المنجور[63] قائلا : «المصنف من جعل العلم أصنافا كرزمة الطهارة والصلاة والبيوع. والمؤلف من زاد عليه بمراعاة الألفة بين الكتب والمسائل، وفيه تظهر رتب المصنفين، ويتميزون ويفضل بعضهم بعضا».

د ـ **مدلول الشرح في العصر الموحدي** : وذلك ما يوضحه الطبيب يوسف بن طملوس الأندلسي الشقري، عند خاتمة شرحه لأرجوزة إبن سينا[64] :

(60) انظر عن شرح ذلك «تاريخ الوراقة المغربية»، مصدر سالبق، ص. 84.

(61) فيما شرح من «دلائل الخيرات» للجزولي، خ. ع، ك 1532، ص. 179 ـ 180.

(62) «تاج العروس»، 343/5.

(63) «شرح أرجوزة المنهج المنتخب إلى قواعد المذهب» للزقاق، ط. ف، 1305 هـ، 8/1.

(64) مخطوطة مكتبة الزاوية الحمزاوية، رقم 171.

«حقيقة الشـرح للتأليف إنما هـو كشف المعانـي التـي أرادها المؤلف، وإيضاحها إذا كانت خفية بحسب عبارة المؤلف، فلذلك ربما كان شرحها بتلخيص المعنى بألفاظ أبين دون زيادة ولا نقصان، وربما احتيج في تفهيم المعنى وشرحه إلى زيادة، وربما زاد الشارح على ذلك المعنى وكمل الفصل الذي تكلم المؤلف فيه، وربما لم يكمله بل زاد على المعنى الذي تكلم فيه المؤلف زيادة رءاها مهمة. وفائدة أكثر من غيرها وترك أشياء أُخَر، إذ ليس من الواجب عليه من جهة ما هو شارح ومفسر أن يبين المعنى الذي أراد المؤلف فقط، وربما قد ترك بعض المعاني ولم يشر إليها لظهورها».

هـ ـ **الرسالة** : في «كشف الظنون»[65] : «الرسالة هي المجلة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع، والمجلة هي الصحيفة التي تكون فيها الحِكَم».

ملحق 4

تعريف بنسخة مخطوطة من صحيح الإمام البخاري

وضمن هذا التعريف إفادات موضوعية مهمة، بينها الإشارة لطريقة إعداد المخطوط لدى بعض الوراقين المرموقين بفاس، فتتعاون العائلة في ذلك : نساء ورجالا وصبيانا، منهم **صانع الورق** والناسخ والمجدول والمذهب حتى يخرج الكتاب كاملا. ويضيف التعريف لذلك التنويه ببعض الوراقين من أسرة الحلو الوطاسيين بفاس ومخطوطاتهم، ويبرز بينهم عبد العزيز الحلو والحاج محمد بن عبد السلام الحلو نزيل صفرو، كل ذلك وغيره دوّنه ـ بتوسع ـ الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، تعريفا بنسخة ثمانية التجزئة من صحيح الإمام البخاري، فنقتبس الفقرات التالية، نقلا من كتابه : «الإفادات والإنشادات وبعض ما تحملته من لطائف المحاضرات» :

في زيارتي الأولى لتونس عام 1340، ظهر في سوق الكتب بها ـ في المزاد العلني ـ نسخة من الصحيح ثُمانية، بقلم خطاط مغربي من عائلة كانت ـ بفاس ـ من بقية ملوك بني وطاس البربر، وكانت ـ إلى ذلك الحين ـ العائلات الماجدة في فاس يتأففون من الاحتراف بالحرف المزرية، فيتخذون ـ مثلا ـ حرفة

(65) منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 1/ع 840.

الوراقة صنعة للعائلة، فيدخل مادة صنع الورق، فيعجن ويخدم حتى يصير ورقا، ثم تشتغل به العائلة التي تسكن تلك الدار : نساء ورجالا وصبيانا، ثم يكتب ثم يذهب ويبوب ويجدول ويشجر ويسفر ويغلف : منهم المورق الناسخ والمجدول والمذهب والمسفر، حتى يخرج كتابا كاملا مذهبا مزخرفا مجدولا مصححا، وهذه عادة جاءت من الأندلس، كان أبناء الملوك والوزراء والقضاة فيها ثَمَّ إذا خرجت منهم الرئاسة يتأففون من الحرف الممتهنة، فيشتغلون بالوراقة فمنها عيشهم.

وكان بعض أولاد الحلو الوطاسيين هؤلاء احتفظوا بهذه الحرفة ـ في فاس ـ ونعمّاهي، فرأيت بخط السيد عبد العزيز الحلو ـ مرة ـ مصحفا مكتوبا كله بالذهب، لا مداد فيه إلا التغنيج مثلا، اشتراه المارشال اليوطي بألف ريال فقط، ورأيت بخطهم نسخة من «الصحيح» في تونس الخضراء ـ بالعبدلية ـ في مجلد واحد، ونسخة أخرى في ضريح الشهيد الصحابي بالقيروان ثم فقدت، ثم نسخة أخرى في مكتبة باش تارزي بقسمطينة، كل هذه النسخة بأحسن خط وأتقن تذهيب وتشجير.

وأدركنا خطاطا من أولاد الحلو بفاس مات قريبا، نسخ ـ بخطه ـ نحو الثلاثين مصحفا، وجميع الكتب الستة، وعدة نسخ من الشفا والشمائل وغيرها، وكانت وقعت لي نسخة من الشفا بخط دقيق جدا في ورق مماثل له بخط أحد أولاد ابن جلون الفاسيين. وهو ناسخ نسخة «الجلالين» التي عندي في جرم صغير وهي كاملة، أما نسخة الشفا فإنها وقعت لي مبتورة من الآخر، فأكملها لي بعد كتبها بنحو الأربعين سنة جزاه الله خيرا، وهو التاجر الوجيه الحاج مَحمد بن عبد السلام الحلو المتوفى ـ أخيرا ـ بصفرو، وعندي نسخة مصحف بخطه أهدته لي إحدى بناته، جزاهم الله خيرا.

وكانت هذه النسخة الثُّمانية من الصحيح ـ التي وجدتها تباع في تونس ـ من النفاسة بمكان : جودة خط، وحسن ضبط ومقابلة وإتقان، إلى ورق جيد صقيل غليظ كأنه جلد، وتذهيب وتراجم وجدويل وتسفير فائق، وفوق هذا نهاية في الصحة، حتى إن على أولها شهادات ـ بخط كبار علماء فاس بل المغرب لذلك العهد ـ بصحتها وضبطها...

وبالجملة فهي نسخة نادرة لا نظير لها في الصحة والجمال والبهاء...

علم المخطوطات والتحقيق العلمي

أحمد شوقي بنبين
كلية الآداب ـ الرباط

جرت عادة العاملين في مجال التحقيق العلمي للتراث العربي أن يعتمدوا في هذه العملية العلمية على نسخة أو نسخ متعددة من المخطوط الواحد باعتبارها نسخا تحتاج إلى شيء من التصحيح والتخريج والمقابلة لتصل بهم إلى النسخة الأصلية أو إلى صورة قريبة منها. والحقيقة أن هذه المخطوطات التي تمت بالاعتماد عليها وبواسطتها عملية التحقيق وأن الطريقة أو الطرق التي اتبعت في تحقيق ذلك ليس من شأنها كما لا يمكنها أن تفضي إلى ما نتوخاه من هذه العملية من نتائج. ويرجع السبب في ذلك بالأساس إلى أن النسخ المعتمدة لم تخضع للبحث الفيلولوجي الدقيق كما أنها لم تطبق في دراستها قواعد وأساليب علم المخطوطات الحديث. فما هو الدور الذي تلعبه الكوديكولوجيا في عملية التحقيق العلمي؟ هذا ما سيحاول هذا العرض الإجابة عنه بإيجاز.

إذا كان علم المخطوطات الحديث أو الكوديكولوجيا يبحث في تاريخ المكتبات وفي مصادر المخطوطات وفي الفهرسة وفي الوقفيات والتملكات وفي النساخة والنساخ وفي الجوانب المادية للمخطوط وفي كل ما هو خارج عن النص (Ex-libris) فإن هذا العرض الوجيز لن يتناول من العناصر المكونة لهذا العلم إلا عنصرين يعتبران أكثر ارتباطا من غيرهما بعملية التحقيق العلمي : أولهما البحث أو التفتيش عن المخطوطات، ثانيهما أثر النساخة والنساخ في المخطوط العربي عبر تاريخه الطويل.

إن التفتيش عن المخطوطات وفهرستها وتأريخها والبحث في مظانها يعتبر المرحلة الأولى في الدراسة سواء بالنسبة للكوديكولوجي الذي يهتم بالمخطوط كقطعة مادية أو

بالنسبة للفيلولوجي الذي يسعى إلى نقد نص المخطوط ونشره. والغاية العلمية من عملية البحث عن المخطوطات هي جمع أكبر عدد ممكن من نسخ المخطوط الواحد تمكن الفيلولوجي من وضع تاريخ لنص هذا المخطوط الذي أصبح السبيل العلمي الوحيد للوصول إلى نسخة المؤلف أو إلى صورة قريبة منها. ولقد دأب المحدثون من المهتمين بشؤون التراث العربي المخطوط أن يكتفوا في التحقيق بنسخة واحدة من الكتاب إذا لم يعرف غيرها أو بنسخ معدودة يعتمدون أقدمها أو أصحها، ويحتفظون في الهوامش بالروايات المختلفة الموجودة في النسخ التي اعتبرت ثانوية مع تخريج الأبيات الشعرية أو تكميلها وشرح الغريب من الألفاظ وترجمة الأعلام وغير ذلك مما نجد له أثرا عند القدماء في توثيق كتب سابقيهم وتحقيقها كما صنع مثلا أبو عبيد البكري في كتاب **اللآلي في شرح أمالي القالي** أو كما نجد عند عبد القادر البغدادي في **خزانة الأدب**.

إن اعتماد نسخة واحدة في التحقيق شيء يرفضه علماء الفيلولوجيا اليوم، فالأولى بعمل من هذا القبيل أن يسمى تصحيحا لأن النسخة الفريدة ليس من شأنها أن تخضع للأساليب الحديثة في نقد النصوص، وعلى قدر علمي فإن معظم النسخ الفريدة التي خضعت لهذه العملية العلمية في تراثنا العربي كثيرا ما كانت ناقصة أو ملأى بالأخطاء من حيث مستوى التراكيب أو الألفاظ أو الأعلام، الشيء الذي فتح الباب على مصراعيه للنقد الحدسي والتخمين في الإصلاح[1]. وفي حالة وجود نسخ معدودة فإن مفهوم النسخة المعتمدة ومفهوم أقدم نسخة مفهومان غير واردين عند علماء الفيلولوجيا. إن النسخة الأم أو النسخة الأساس هي التي تمثل أقدم شكل للمخطوط بعد إخضاع نُسَخِهِ المختلفة والمتعددة لعملية تاريخ النص (Histoire du texte) الذي يهدف إلى إعادة بناء وتركيب النسخة الأصلية. أما مفهوم «أقدم نص» أو «أقدم نسخة» وهو شعار كثير التداول عند دعاة التحقيق فإنه لا اعتبار له فيلولوجيا، فكم من نسخة حديثة أقوم وأقل خطأ من النسخة العتيقة إما لأنها سليلة عائلة سليمة قديمة أو لأنها نسخت عن نسخة أكثر قدما قريبة من النسخة الأصلية.

(1) **طوق الحمامة**، لابن حزم الذي توجد منه نسخة فريدة في خزانة جامعة ليدن بهولندة هي نسخة ناقصة لأن إحالات ابن حزم عليها في مؤلفاته الأخرى إحالات غير موجودة في نسخة هولندة. كذلك إحالات العلماء عليها بعد ابن حزم إحالات لا نعثر عليها في هذه النسخة اليتيمة. وكذلك قل في النسخة الفريدة لكتاب **الانتصار** لأبي الحسين بن الخياط والمحفوظة بدار الكتب بالقاهرة، إنما مليئة بالأخطاء ولا ينبغي اعتمادها في التحقيق.

وإذا جاز لنا أن نتحدث عن مفهوم «أقدم نص» فباعتباره إحدى النسخ التي تساعد على تسهيل مأمورية المحقق في الوصول إلى النسخة الأم (archétype) التي ليست نسخة المؤلف ولكنها المنطلق لما بقي محفوظا ومتداولا من نسخ المخطوط. إن الاعتماد إذن على نسخة واحدة أو عدة نسخ لم يعد مقبولا علميا وعمليا في عملية نقد النص مهما كانت الطرق والمناهج المطبقة في المتناول. كما أنه لا ينبغي أن نمارس التحقيق العلمي بالطرق السالفة الذكر بدعوى قلة نسخ المخطوط الواحد أو عدم وجودها، بل يجب التفتيش عن المخطوطات وتجميعها وفهرستها لتتم الاستفادة منها في هذه العملية. ولا يعني وجود نسخ فريدة انعدام أخريات لنفس المخطوط. إن ما جمع حتى الآن وفهرس من المخطوطات العربية يقدره المختصون بثلاثة ملايين، وإن ما هو غير مفهرس وما لم يكتشف بعد بل لا يزال رهين محابس المكتبات العامة والخاصة يفوق ما هو معروف ومفهرس، ولا أدل على ذلك مما يكتشف من مخطوطات وما يصدر من فهارس المخطوطات من حين لآخر. فاعتبارا لهذه الاكتشافات التي تكاد تكون يومية فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ليس مقبولا ولا معقولا ألا يبقى من الكتاب المخطوط سوى بعض نسخه على الرغم من تناقله وتنسيخه وتداوله عبر العصور في مختلف خزانات المدارس والجامعات والزوايا والمساجد التي تعد بالمآت وربما بالآلاف في أرجاء العالم الإسلامي الفسيح. إن التقصير الذي منيت به قضية البحث عن المخطوطات أدى إلى القصور في عملية تحقيق كتب التراث وإن عدم العثور على ما يكفي من نسخ المخطوط الواحد بعد التقصي والبحث في فهارس الخزانات لا يعني بالضرورة فقدان هذه النسخ إلى الأبد بدعوى أن المكتبات الإسلامية خضعت لألوان من التخريب والإتلاف والإهمال عبر التاريخ. إن ما تعرضت له خزانات أوربا من الإحراق وما أصابها من النهب والسرقة أكثر بكثير مما منيت به مكتباتنا العربية الإسلامية، ومع ذلك فإن خزانات الغرب تعج بملايين المخطوطات وتزخر بمآت النسخ من المخطوط الواحد. ولا ينبغي أن يعتقد أن الاجتياح الذي تعرض له التراث العربي عبر العصور هو السبب الوحيد في إتلاف الكثير من المخطوطات بل كان الاختلاف في الرأي وفي العقيدة والمذهب كما كان الإهمال كذلك من الأسباب التي كانت تدعو إلى فقدان الكتب وإخفائها زمنا طويلا ثم لم تلبث أن تعود إلى الظهور بعدما تنتهي الدواعي وتزول الأسباب التي دعت إلى غيابها.

ومن الأمثلة على هذه الظاهرة في تراثنا العربي ما يرويه ياقوت في **معجم**

الأدباء[2] عن أبي حيان التوحيدي الذي يحكي بدوره عن أبي بكر الإخشيد الذي رغب في الحصول على كتاب مفقود للجاحظ هو: **الفرق بين النبي والمتنبي**، فاستأجر مناديا ينادي في عرفات يسأل الناس عن هذا الكتاب، وعلى الرغم من الحشد العظيم فإنه لم يعثر عليه، واليوم، يحكي التوحيدي فإنه لا تخلو خزانة من نسخة منه، وقد رأيت أكثر من مائة نسخة. ويروى أن ابن خلكان كان يشكو من عدم حصوله على أكثر كتب المعري بينما يشهد أحد المتأخرين بوقوفه على معظم كتب أبي العلاء. كما قضى البيروني أكثر من أربعين سنة وهو يفتش عبثا عن نسخة من كتاب ماني **سفر الأسرار** إلى أن وفق إلى الحصول عليها[3]. ويقول ابن رشد في **كشف مناهج الأدلة** : إنه أراد الوقوف على بعض كتب المعتزلة استجلاء لبعض المشكلات الفلسفية التي كان يعنى بها فلم يتمكن من الحصول عليها، فهل فقدت بعض كتب المعتزلة قبل زمن ابن رشد (595هـ)؟ وهل يبدو معقولا أن يعجز رجل كابن رشد عن الحصول على تراث المعتزلة الذي يمثل قسمة من أهم قسمات تطورنا الفكري والحضاري لو لم تمتد إليه بعض الأيدي لإخفائه ثمانية قرون؟ إن هذه الأيدي التي امتدت إلى تراث المعتزلة لم تكن غير أيدي المعتزلة أنفسهم، «إن فرقة الزيدية (زيد بن علي بن الحسين) التي تعتقد مذهب المعتزلة أقامت لها دولة في اليمن، فلما وقع الاضطهاد للمعتزلة على عهد العباسيين وشن خصومهم حملات الإبادة ضد كتبهم وآثارهم الفكرية أرسل واحد من أئمة الزيدية باليمن الرسل فجمعوا بقايا تراث المعتزلة من المواطن التي كانوا يعيشون فيها وجاءوا إلى صنعاء بهذه الكنوز وهناك نسخت وحفظت في مكتبات صنعاء وخاصة مكتبة الجامع الكبير، وهناك بقيت بعيدة عن أنظار الدنيا كلها لعدة قرون حتى إن كتاب بروكلمان **تاريخ الأدب العربي** يخلو من أية إشارة إلى هذه المخطوطات. وظل الحال كذلك حتى الخمسينات من هذا القرن حين سافرت بعثة من جامعة القاهرة فاطلعت عليها وصورت الكثير منها. ومنذ ذلك الوقت أمكن الوقوف على كتب كتبها المعتزلة أنفسهم وليس خصومهم، وأصبح باستطاعة الدارسين أن يعرفوا آراء المعتزلة من مصادرها لا من مصادر خصومهم»[4].

---

(2) **إرشاد الأريب** : ج 6، ص. 721. انظر : كذلك : فرانز روزنتال : **مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي** : ص. 53.

(3) نفس المصدر، ص. 51 نقلا عن رسالة البيروني في فهرست كتب الرازي، ص. 3.

(4) **التراث في ضوء العقل** : عمارة محمد، ص. 173.

إن هذه الأمثلة تكفي لتنبيه المهتمين بشؤون التحقيق إلى أن ما يعتبرونه في حيز المفقود من المخطوطات قد يوجد الكثير منه محفوظا في مختلف الخزانات. إن التقصير في التفتيش عن المخطوطات جعل الكثير مما اعتبر محققا من كتب التراث غير ذي قيمة، بل اعتبرت هذه الكتب وهذه الأعمال من حيث المستوى الفيلولوجي مضيعة للوقت والجهد والمال بعدما اكتشفت نسخ أخرى للكتاب المحقق ألزمت الباحث المحقق إلزاما إلى إعادة النظر في تحقيقه كما دعت الباحث الدارس إلى إعادة النظر فيما أصدره من أحكام وما استخلصه من نتائج اعتمادا على النسخة المحققة. وأقتصر في هذا المجال على مثالين يتعلقان بعالمين يعتبران من كبار المحققين ومن المؤلفين القلائل الذين وضعوا تآليف في قواعد تحقيق النصوص؛ هذان العالمان هما المرحوم عبد السلام هارون وصلاح الدين المنجد. إن هارون حقق كتاب سيبويه واعتمد في عمله على نسخ أربع محفوظة كلها بدار الكتب بالقاهرة، إن هذه النسخ حسب هارون نفسه إما مجهولة الناسخ وعارية من تاريخ النسخ أو أنها حديثة العهد أو هي أوراق متناثرة، الانتفاع بها جد عسير، ولا تصلح لغير الاستئناس. ولو تقصى شيخ المحققين البحث عن نسخ أخرى للكتاب لوجد ثلاث نسخ في مكتبات تركيا ورابعة بخزانة جامعة «برنستن» بالولايات المتحدة وجميعها أقدم وأوثق من تلكم التي اعتمدها في تحقيقه. وقد تجمع عند باحثة فرنسية في المركز الوطني للبحث العلمي بباريز هي إمبير جنفييف (Imbert Geneviève) سبع وسبعون نسخة من كتاب سيبويه[5] وهو عدد كاف لتحقيق الكتاب تحقيقا حسب الأساليب الحديثة في نقد النصوص، وستتمكن هذه الباحثة من القيام بتاريخ نص الكتاب الذي سيعطي ولاشك نصا لمؤلف سيبويه مخالفا لكل النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعتا درنبورغ الفرنسي وهارون المصري، وسيضطر الباحثون في النحو العربي بعد صدور هذا العمل ونشره إلى تغيير موقفهم من كثير من آراء سيبويه النحوية. أما الأستاذ صلاح الدين المنجد فإنه قد حقق كتاب **اللغات في القرآن** المنسوب لأبي عبيد القاسم بن سلام (223هـ) معتمدا على نسخة واحدة محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق. وقد فات المحقق أن الكتاب طبع مرتين إحداهما بهامش **تفسير الجلالين**،

---

(5) اكتشف فؤاد سيزكين ستاوستين نسخة من الكتاب (انظر تاريخ التراث العربي) واكتشفت الباحثة جنفييف Geneviève إحدى عشرة نسخة ـ واكتشف أخيرا في إحدى زوايا المغرب الأقصى نسخة أخرى من كتاب سيبويه فأصبح العدد ثمانا وسبعين نسخة (78).

وثانيهما بهامش كتاب **التيسير في علم التفسير**، كما توجد للكتاب مخطوطتان محفوظتان في كل من خزانة شستر بتى (Chester Beatty) بإيرلندا وخزانة أسعد بإصطنبول[6]. ولو قرأنا في ما نشر أخيرا من فهارس المخطوطات العربية في العالم لعثرنا بالتأكيد على نسخ أخرى من الكتابين السالفي الذكر ربما كانت كافية من حيث العدد لتمكن المحقق من القيام بوضع تاريخ للنص.

ومن محاولات المحدثين النادرة في مجال القيام بتاريخ النص في التراث العربي المخطوط تلكم التي قام بها كل من محمد ابن تاويت الطنجي ومحسن مهدي في تحقيق كل من **رحلة ابن خلدون شرقا وغربا** وكتاب **ألف ليلة وليلة**. لقد بذل الرجلان الجهد في جمع أقصى عدد من نسخ الكتابين مكنهما من وضع تاريخ نصهما على الطريقة الحديثة. وإذا ثبت لدى علماء الفيلولوجيا أن الوصول إلى نسخة تماثل شكل النسخة الأصلية شيء غير وارد فإن ابن تاويت قد وصل إلى النسخة الأم[7] التي انبثقت عنها كل النسخ الموجودة. أما محسن مهدي فقد توصل إلى نموذج من ألف ليلة وليلة يختلف كل الاختلاف عن النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعة بولاق[8].

إن البحث عن المخطوطات وتجميعها يعتبر المرحلة الأولى والعنصر الأساسي في عملية التحقيق العلمي. إن الكوديكولوجي أو المختص في علم المخطوطات ـ وليس

---

(6) التقصير في البحث عن المزيد من نسخ المخطوط الواحد كثيرا ما يلاحظ عند المهتمين بشؤون التحقيق. بالإضافة إلى المثالين المذكورين أعلاه يمكن الإشارة إلى **المزهر في اللغة** للسيوطي الذي يبقى بحاجة إلى تحقيق علمي حديث، بعد طبعاته الثلاث بما فيها طبعة بولاق تولى تحقيقه ثلة من العلماء فاعتمدوا النسخ المطبوعة وأغفلوا نسخا خطية أخرى أشار إلى كثير منها بروكلمان في تاريخه كنسخ برلين ولندن وباريز، والموصل، ومانشستر والإسكوريال واصطنبول ودمشق وغيرها.

(7) النسخة الأم هي أقدم شاهد على الشكل المحفوظ لنص المؤلف. وإذا وصل البحث إلى أشكال مختلفة من النص المخطوط فهذا يدل على نسخ أمهات عديدة. ودور الفيلولوجي الذي يريد أن ينشر نصا يقتصر أولا على إيجاد النسخة الأم لهذا النص.

(8) يذكرنا عمل محسن مهدي بعمل الفيلسوف والفيلولوجي الألماني كارل لخمان (Karl-Lakhmann, 1851) الذي كان من واضعي قواعد تاريخ النصوص تلكم القواعد التي طبقها في دراسته لكتاب الشاعر اللاتيني لوكريس (Lucrèce) ق1 ق م **في الطبيعة (De rerum natura)** فخرج بنص يختلف كل الاختلاف عن كل النسخ المخطوطة والمطبوعة.

أما بالنسبة للقدماء من العرب المسلمين فيمكن اعتبار محاولة اليونيني في تحقيق روايات البخاري نموذجا لتاريخ النص، وإن لم يتوفر الرجل على الأساليب التي استحدثها مؤرخو النصوص المحدثون. وتجدر الإشارة إلى أن محاولة اليونيني هذه هي الغاية التي تهدف إليها مدرسة الفيلولوجيين المحدثين في ألمانيا التي توجه أبحاثها في الروايات المختلفة للخبر الواحد في كتب التراث العربي.

المحقق وناقد النص ـ هو الرجل المؤهل الموكول له عملية التفتيش وذلك في إطار منظمة أو معهد أو مجمع أو أكاديمية توفر له الوسائل المادية لتحقيق ذلك. وإن المحاولة التي يقوم بها بالتعاون كل من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ومعهد المخطوطات العربية لجمع المخطوطات والحصول على فهارسها ونشرها[9] لتعتبر لبنة من اللبنات التي سيقوم عليها صرح عملية التحقيق العلمي الصرف في البلاد العربية والإسلامية.

أما العنصر الثاني من عناصر علم المخطوطات التي أخذت على نفسي دراسة أثره وعلاقته بعملية التحقيق هو النساخة وتأثير النساخ في المخطوطات العربية في مختلف الأماكن والبلدان. إن تناقل المخطوطات ونسخها عبر العصور دعا إلى الكثير من الإضافات والحذف والتغيير والتبديل شوه النصوص أحيانا وغيّرها تغييراً كاملا أحيانا أخرى، الشيء الذي جعل القيام بتاريخ النصوص ضربة لازب ومرحلة أساسية في عملية نقد النصوص[10]. وسوف أعالج هذهالقضية من خلال نص من كتاب **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع** للقاضي عياض. يقول المؤلف عن عملية النسخ : «فليقابل نسخته من الأصل بنفسه حرفا حرفا حتى يكون على ثقة ويقين من معارضتها ومطابقتها ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف دون مقابلة، نعم ولا نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح، فإن الفكر يذهب، والقلب يسهو، والنظر يزيغ والقلم يطغى»[11]. إذا كانت عملية المقابلة أساسية في هذا النص فإنه يمكن استخلاص ظواهر أخرى تتعلق بالنساخة وبالناسخ كذلك. فالمقابلة حرفا حرفا كما يدعو إليها المؤلف والتي هي عملية أساسية في عمل الناسخ توحي لنا بأن المعاينة طريقة شائعة في النساخة العربية بالإضافة إلى المشافهة حيث يملي الشيخ

(9) يقتصر العمل على :
ـ حصر فهارس المخطوطات.
ـ الحصول عليها بالشراء أو التصوير.
ـ اشتراك المجمع والمعهد في نشر الفهرس الشامل للمخطوطات بعد إعداده.

(10) ظهر تاريخ النصوص لما شعر العلماء بأن النصوص القديمة التي يقرأونها ليست هي النصوص التي تركها مؤلفوها والتي تعرضت مع الأيام لتغييرات وإضافات كثيرة. ظهر هذا العلم عند لخمان Lakhman ومنافسيه وعلى الأخص في الأعمال التي خص بها لخمان الإنجيل ومؤلفات الشاعر لوكريس Lucrèce وبالأخص منها كتاب **الطبيعة** كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويعتبر الألمان أسياد علم الفيلولوجيا في القرن 19م بحكم تعدد الجامعات وجلب العلماء نتيجة السياسة اللامركزية السائدة آنذاك.

(11) **الإلماع** : القاضي عياض، ص. 159.

ويكتب عنه الطلبة أو يملي قارىء ويكتب عنه الناسخ. وتأكيد المؤلف على القراءة حرفا حرفا زيادة في التحري حتى لا يخطىء. إن التحليل السيكولوجي لعملية النسخ دعا أحد علماء الفيلولوجيا وهو دي روسو (Desrousseaux) إلى تمييز أربع عمليات في فعل الناسخ المعاين تحدث في نفس الوقت ولابد أن توقع ممارسها في الخطإ :

1 ـ قراءة النص
2 ـ حفظ النص
3 ـ الإملاء الداخلي
4 ـ تنفيذ عملية الكتابة[12]

هذا هو الميكانيزم السيكولوجي لعمل الناسخ وهو الذي يفسر أو يعلل أخطاء النسخ التي يحدث معظمها أثناء المرحلة أو العملية الثالثة التي هي الإملاء الداخلي. وبالإضافة إلى ذلك فإن طب العيون الحديث قد أثبت أن القارىء لا يقرأ إلا جزءا من الكلمة ويكمل قراءته بالحدس والتخمين، ومن هنا إلحاح القاضي عياض على قراءة الكلمات حرفا حرفا. ثم يقول : «ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف» بمعنى أن الناسخ الثقة ذا النية الحسنة قد لا يسلم من الوقوع في الخطإ، فمهما كان الناسخ متشبثاً بقول الشاعر القديم :

وما من كاتب إلا سيفنى ويبقى الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

وكيفما كان حرصه على تجنب الخطإ ودعاؤه لنفسه في خاتمة الكتاب بعفو الله[13] وحسن الخاتمة فإنه يخطيء ويحرف بدون قصد، لهذا وجب الاحتياط كيفما كانت طبيعة الناسخ ومهما كان مصدر النسخة. وبالإضافة إلى هذا الحذر يجب التحقق من تاريخ النسخ إذا كانت النسخة المنقول منها مؤرخة [14] ولا يغتر الناسخ بالتواريخ المثبتة على ظهر المخطوطات، فكم من مخطوط مؤرخ تأريخا قديما وهو

(12) Alphonse Dain : **Les Manuscrits**, éd. «Les Belles lettres», p. 41.

(13) ظاهرة معروفة في أوربا في العصر الوسيط. كان الرهبان ينسخون بحذر وإخلاص رجاء ثواب الله والتكفير عن ذنوبهم.

(14) كثيرة هي المخطوطات غير المؤرخة والمحفوظة في الخزانات العالمية ومن بين مهمات الكوديكولوجي تأريخ النسخ غير المؤرخة وبالتالي وضع فهارس المخطوطات التي ثبت تأريخها علميا. وهذه عمليات لا تزال تفتقر إليها مخطوطاتنا العربية.

منسوخ حديثا ـ في مثل هذه الحالات يصبح البحث في العناصر الباليوغرافية والكوديكولوجية للمخطوط كالخط والورق وغيرها شيئا ضروريا، وحتى قدم الورق لا يكون بالضرورة دليلا على قدم المخطوط في الزمن. يحكي ياقوت الرومي أن ابن البواب تولى مكتبة بهاء الدولة في شيراز، وفي أحد الأيام صادف بين كومة من الكتب نحيت جانبا مجلدا بلون أسود تبين أنه جزء من القرآن في ثلاثين مجلدا مكتوبة بخط ابن مقلة، وأن هذا أثار أقصى إعجابه، وقد نجم عن البحث في المكتبة العثور على تسعة وعشرين مجلدا، وبقي أحد المجلدات مفقودا، وعندما أنهي الأمر إلى علم بهاء الدولة أمر هذا بإتمام الكتاب وعرض على ابن البواب أن يكتب المجلد المفقود بشرط أن يتلقى ثوب الشرف ومائة دينار إذا تبين تعذر التمييز بين المجلد المكتوب حديثا وباقي المجلدات. وقد قبلت هذه الشروط، وبحث ابن البواب في المكتبة عن ورق قديم شبيه بورق المجلدات الباقية، وكتب المجلد المفقود بطلاء الذهب بعد تعتيقه، ثم جلده مستعملا غلافا مأخوذا من كتاب آخر. وعندما تذكر بهاء الدولة الأمر بعد سنة، جلبت له النسخ الثلاثون، وفحصها بدقة دون أن يستطيع اكتشاف النسخة المكتوبة حديثا، فاحتفظ بها جميعا على أنها أعمال ابن مقلة[15]. ويروي ياقوت كذلك بأن خطاطا من القرن السابع الهجري اشترى صفحة من خط ابن البواب بأربعين درهما نسخها على ورق قديم وأعطى النسخة إلى بائع الكتب باعها بدوره بستين درهما على أنها خط ابن البواب[16].

كثير من النساخ يقلدون النسخة المنقول منها تقليدا كاملا حتى لا يميز بينهما كما رأينا في المثالين السابقين وذلك إظهارا لدهائهم وعبقريتهم، وهذه الحالة من الأسباب التي دعت اليوسي إلى أن يقول في الملزمة الرابعة والعشرين من كتاب القانون «وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على الناسخين»[17]. ثم قال المؤلف : ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحح فإن الفكر يذهب

---

(15) تفيد القصة بأن كتابة ابن البواب لم تكن بعيدة جدا عن كتابة ابن مقلة كما أن التزوير شيء ممكن. أما ابن البواب الذي قام بعملية النسخ فلم يستلم المكافأة المتفق عليها، ولكن أجيب طلبه بالحصول على كل الورق الصيني المقطوع في المكتبة والذي يكفي للبقاء عنده عدة سنوات : **إرشاد الأريب**، المجلد 6، ص. 34 نقلا عن **الكتاب العربي** لـ «يوهانس بيدرسن»، ص. 88 في الطبعة الانجليزية وص. 113ـ114 من الترجمة العربية.

(16) نفس المرجع، ص. 113ـ114.

(17) **القانون** : لأبي على الحسن اليوسي، الملزمة 24، ص. 4، (ط. حجرية).

والقلب يسهو والنظر يزيغ والقلم يطغى... يفهم من هذه العبارات أن الناسخ مهما كانت طبيعته فإنه يكتب تحت تأثير سيكولوجيته الخاصة وذوقه الشخصي وشخصيته الكاملة، فلابد إذن للنص المنسوخ من أن يتأثر بهذا السلوك لأن نسخ النصوص وتناقلها على العموم هو قبل كل شيء عمل إنساني خاص، وهذه الخاصية الإنسانية هي التي ينبغي الكشف عنها في خلال دراستنا لتراثنا العربي المخطوط. فذهاب الفكر وسهو القلب وكلال النظر وطغيان القلم ظواهر إنسانية تعتري الناسخ فيغير أو يحرف بدون أن يشعر. ودراسة النسخ المختلفة للمخطوط الواحد دراسة كوديكولوجية قد تؤدي بالباحث الدارس إلى اكتشاف الأسباب التي دعت الناسخ إلى الوقوع في هذه الأخطاء. والنسخ الخطية التي من شأنها أن تساعد الباحث على اكتشاف هذه الأسباب هي النسخ التي نجت من التصويب والإصلاح واحتفظت بالأخطاء التي بواسطتها يتمكن مؤرخ النصوص من الوصول إلى أصل أو مصدر الخطإ. إن من بين الأخطاء التي يقع فيها محققو النصوص العربية اعتمادهم نسخة مصححة وتسميتهم لها بالنسخة الجيدة. إن مفهوم النسخة الجيدة مفهوم غير وارد في المعجم الفيلولوجي. وإذا جاز لنا أن نتحدث عن النسخة الجيدة فهي النسخة التي احتفظت بالأخطاء وليس تلكم التي تم تصحيحها، إن هذه الأخيرة تضلل المؤرخ للنصوص وربما تقبر إلى الأبد فكرة الوصول إلى النسخة الأم أو النمط الأعلى الذي انبثقت عنه باقي النسخ.

إن مشاكل النساخة والنساخ قديمة قدم هذا التراث. وقد شعر القدماء بخطورتها منذ بداية حركة التأليف فقاوموها بقدر الوسائل والأدوات المتوفرة لديهم. إن وجود إجازات النسخ المثبتة على ظهور المخطوطات على غرار إجازات الرواية والسماع، وكذا وجود عبارات في الوقفيات تمنع نسخ المخطوط لدليل على الاحتياط الذي كان يتخذه القدماء إزاء النساخ ونفس هذا الاحتياط هو الذي دفع القدماء إلى ظاهرة الاستطراد التي تعج بها النصوص القديمة حيث كانوا يكتبون كل شيء في المتن لأن الحواشي وهي غير المتن تكون عرضة للحذف من قبل النساخ أو عرضة للإقحام، وفي حال إقحامها في المتن يقع اضطراب في المخطوط[18]. إن آثار النساخة في تغيير

(18) ابتداء من القرن الثامن الهجري شعر الناس بالحاجة إلى الحواشي والهوامش فكانوا عندما يضيفون أو يستطردون يميزون هذه الإضافة وهذا الاستطراد بقولهم : «تنبيه»، «فائدة»، «تعليق»، «حاشية»... انظر : **مناهج العلماء المسلمين** : لفرانز روزنتال، ط 1980، ص. 111.

وتحريف النصوص العربية أكثر من أن تعد، وإن البحوث النظرية لا تفضي إلى نتائج ملموسة في هذا المجال، وليس المحقق الطاريء هو الذي يحل المشكلة، ولكنه العالم بالمخطوطات المتعامل معها والمتمرس على دراستها كالتفتيش عنها والبحث في مصادرها والمقابلة فيما بينها والقيام بدراسات مختلفة فيما يخص أدوات الكتابة والأدوات المكتوب عليها[19] ودراسة خطوطها وتأريخ ما لم يؤرخ منها ثم وضع قوائم بالنساخ على غرار تلكم التي وضعت بالنسبة لنساخ المخطوطات الإغريقية واللاتينية[20] ثم البحث في حياة النساخ وسلوكهم وإخضاعهم حسب الإمكان لما يسمى عند المحدثين بنظرية الجرح والتعديل للتأكد مما ينسخون، لأن مثل هذه البحوث والدراسات يفتقر إليها تراثنا العربي ومفروض القيام بها عمليا قبل الاهتمام بعملية التحقيق العلمي.

لقد أصبح ضربة لازب في العالم العربي التفكير في إنشاء معهد لدراسة وتدريس علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا codicologie وتكوين مختصين في هذا العلم قادرين على الاهتمام والعناية بأضخم تراث مخطوط عرفه تاريخ الإنسان. إن الأعمال العلمية والتقنية التي سيقوم بها علماء الكوديكولوجيا في مجال المخطوط العربي ستفيد الباحثين المهتمين بالتحقيق أيما إفادة، وإن النتائج التي سيفضي إليها هذا النوع من البحث لمن شأنها أن تعطي وجها آخر للنصوص التي اعتمدت حتى الآن في استخلاص النتائج وإصدار الأحكام.

(19) التحليل الفيزيائي والكيميائي للوعاء وللمداد (وهي تقنيات مستعارة من علوم الفيزياء) دراسة علامات الكاغد أو الفيليغران (Filigranes) ويعبر عنها بالبترديوغرافيا (Betaradiographie) والهولوغرافيا (Holographie) لمقارنة الخطوط. إلخ...

(20) وضع فوجل Vogel عام1909 م لائحة بالنساخ الاغريق تفصل القول في كل ناسخ وفي كل ما نسخه من مخطوطات. كما وضع J.W. Bradley لائحة بالنساخ اللاتين عام 1887 م.

المخطوطات العربية والإسلامية في مكتبة الكونغرس الأمريكي

مصحف الشيخ حمد الله الأماسي

جورج عطية
مكتبة الكونغرس الأمريكي

الولايات المتحدة والمخطوطات العربية والإسلامية

يجدر بنا قبل البحث في موضوع هذه الدراسة أن نلقي نظرة عامة على اهتمامات الولايات المتحدة الأمريكية بشؤون المخطوطات العربية والإسلامية. فلقد دخلت هذه ميدان المخطوطات العربية والإسلامية متأخرة من حيث الزمن. كانت أوروبا سبّاقة في هذا الميدان؛ إذ نجد في مكتباتها الغنية نفائس المخطوطات التي اقتنتها منذ أجيال عديدة، يعود بعضها إلى القرن السادس عشر الميلادي. ويعكس هذا البعد الزمني إجمالاً وضع أميركا الشمالية التي كانت منعزلة ومعزولة عن العالم العربي والإسلامي، لم يكن هناك دوافع مادية أو معنوية لتجعلها تتورط في شؤون هذا العالم أو تهتم به اهتماما خاصا. ففي القرنِ التاسع عشر كانت الولايات المتحدة لا تزال تبحث عن هويتها وتحاول ترويض مناطقها الغربية وتنمي ثروتها الاقتصادية والصناعية. وإذا كان هناك أي اهتمام، خصوصا بمنطقة الشرق الأوسط، فقد كان نابعا من الاهتمام بالدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس. وقد تغيّر هذا الوضع مع قدوم القرن العشرين؛ إذ خرجت أمريكا من عزلتها وبدأت تقترب أكثر وأكثر من العالم خارج الغرب. وخلافاً لما كان عليه وضع الدراسات العربية والإسلامية المتقدمة في أوروبا والمتأصل في التوجهات الاستعمارية الأوروبية. فلم تكن هناك جذور عميقة لهذه

الدراسات في الجامعات الأميركية، ولذلك عندما ابتدأت هذه الدراسات تحتل مركزا في البرامج لم تجد أمامها إلا النموذج الاستشراقي الأوروبي لتستمد منه مقدماتها الفكرية. فقد تأسست في سنة 1842 الجمعية الأميركية للدراسات الشرقية التي أعلنت على لسان مؤسسها «جان بيكرنغ» أن غاياتها وأهدافها هي أولا تنمية المعرفة حول اللغات الأسيوية والافريقية والبولونيزية وكل ما يتعلق بالشرق، وثانياً تنمية الحساسية في الولايات المتحدة للدراسات الشرقية، وثالثاً نشر الكتب والترجمات والدراسات في مجلتها «المجلة الأميركية للدراسات الشرقية»، ورابعاً إنشاء مكتبة. وهكذا كانت هذه الجمعية هي السبّاقة للمؤسسات العديدة الموجودة الآن والمتخصصة بالدراسات «الشرق أوسطية» بما فيها الدراسات العربية والإسلامية. وقد بدأ بعض العلماء الأميركيين ــ وهم قليلو العدد ــ بجمع التراث العربي شراءً منذ أوائل القرن التاسع عشر؛ نذكر على سبيل المثال وليم بنتلي (1759ــ1819). ولكن الرغبة في شرائه واقتنائه لم تزدد حتى الربع الثاني من القرن العشرين، مما أعطى الولايات المتحدة مجموعات نادرة قد لا تقل شأناً عن المجموعات الموجودة في أوروبا. ونجد الآن التراث العربي والإسلامي في أماكن مختلفة : في الجامعات خصوصا والمكتبات العامة والمكتبات الخاصة عند بعض العلماء والأثرياء ،في المتاحف وعند بائعي الآثار. ولا شك أن مكتبة جامعة «برنستون» هي أعظم مركز للمخطوطات العربية والإسلامية؛ فهي تحتوي على العديد من نوادر المخطوطات من حيث القدم إما لكونها مكتوبة بخطوط مؤلفيها أو لكونها مزوقة ومذهبة. وفي مكتبة جامعة ييل مخطوطات قديمة جدا مثل «فتوح البلدان» للبلاذري، وهي نسخة غير منقوطة من القرن الخامس الهجري ومصحف بخط رفيع جدا بالغ الصغر بقلم ياقوت المستعصمي، تاريخها 1261/2 هـ.. وعلى الإجمال هناك ما يزيد على مائة مؤسسة علمية تحتوي على مخطوطات عربية وإسلامية غالبيتها الساحقة عربية، ويمكن القول إن عددها يزيد على الثلاثين ألفاً من المخطوطات. وفي أكثر هذه المؤسسات قطع نادرة ليس هنا المجال لبحثها.

مخطوطات مكتبة الكونغرس

إن وضع المخطوطات العربية والإسلامية في مكتبة الكونغرس لا يختلف كثيرا عما هو عليه الوضع في بقية المؤسسات العلمية والفنية الأميركية. أكثرها لا يزال بدون فهرسة نهائية، مع المحافظة عليها بتأنٍّ وبطرق حديثة. وتقتني مكتبة الكونغرس

حوالي 1700 مخطوطة عربية وحوالي ثلاثمائة ما بين فارسية وتركية، كما تقتني مجموعة نادرة من جلود الكتب من أزمان ومواضع مختلفة. وهذه المجموعة هي أكبر مساعد لمن يريد دراسة فن التجليد في الإسلام: ففيها العادي، ومنها المزوق والمذهب والمزخرف بالمينا، وهناك مجموعة تبلغ الثلاثمائة من صحائف الخطوط الجميلة. ومن نوادر مقتنيات المكتبة مصحف يحتوي على أجزاء من القرآن الكريم نعتقد أنه بخط الشيخ حمد الله الأماسي. ولكن قبل أن نأتي إلى وصف هذا المخطوط النادر لابد أن نلقي نظرة على دور الشيخ حمد الله في تطوير الخط العربي وتقدمه.

الشيخ حمد الله الأماسي

نحن نعرف أن أول من أدخل إصلاحات كبرى على القلم الكوفي كان ابن مقلة (ت. 940/328) الذي كان وزيرا ونجح في تجويد وتحسين الخط الكوفي بتحويله من خط مربع الشكل إلى خط ليّن متزن، سهل القراءة. وابن مقلة هو الذي هندس الحروف وأجاد تحريرها بجعله مقادير الحروف متناسبة. وقد قال ابن مقلة «إن النسبة مقدرة في الفكر وأساسها أن تكون الألف قطر دائرة وأن الراء ربع دائرة في نسبة مقدرة في الفكر والنون نصف دائرة مقدرة في الفكر أيضا»[1] ولقد أدرك ابن مقلة الحاجة إلى تركيز أنواع الحروف وتصفية المتشابه منها ـ وكانت هذه قد كثرت في القرن الثالث الهجري ـ والاقتصار على أوضحها وأجملها، فاستخلص ستة أنواع أو أقلام هي الثلث والنسخ والتوقيع والريحان والمحقق والرقاع. وجاء من بعده ابن البواب (ت 413هـ/1022م) الذي أكمل ما بدأه ابن مقلة وأبلغه درجة عليا من الكمال نراها في النسخة النادرة من القرآن الكريم الموجودة في مكتبة «تشستر بيتي» في مدينة دبلن بإيرلندا والممضاة بخط يده، ويأتي في الشجرة بعد ابن مقلة وابن البواب جمال الدين ياقوت المستعصمي (ت. 698هـ/1298م) الذي عاش في زمن آخر خليفة للعباسيين ولعب دورا مهما في تطوير الخط العربي وتجويده مضفياً على الخط جمالا بالغاً من الكمال والحسن جعلت منه رائداً لمن جاء بعده من الخطاطين. وينسب إليه شذب القلم بطريقة تجعل جرّاته الثخينة منها والرفيعة أكثر تميزا وأكبر روعة. وظهر

(1) ابن مقلة، «رسالة في علم الخط» بمعهد المخطوطات بالقاهرة، مذكورة في كتاب «الخط العربي من خلال المخطوطات» معرض عن الخط العربي في قاعة الفن الإسلامي بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 1406هـ، ص. 35.

بعد المستعصمي عدد من الخطاطين الذين حذوا حذوه؛أشهرهم خير الدين المرعشي (القرن الخامس عشر م) الذي تتلمذ عليه الشيخ حمد الله الرائد الأكبر للخطاطين الأتراك. فبظهوره بدأ في تركيا عهد جديد متألق استمر طويلا حتى يومنا هذا.

ولد الشيخ حمد الله عام 833هـ/1429م بناء على إحدى الروايات أو عام 1436/840 بناءً على رواية أخرى. وعلى الأرجح إنه ولد عام 833هـ، لأن إحدى مخطوطاته القرآنية (السليمانية ـ برتونيال ـ1) خطّها وعمره 89 سنة. ونحن نعرف أنه توفي عام 1520م، أي أنه كتبها قبل وفاته بسنتين[2]. كان والد الشيخ حمد الله مصطفى دده أحد أتراك بُخَارَى من الذين هاجروا إلى بلدة أماسيا، وكان من مشايخ الطريقة السهروردية. ولهذا السبب كان حمد الله أفندي يكتب اسمه في غالب الأحيان هكذا : «حمد الله المعروف بابن الشيخ». ولم نر أنه كتبه كما هو مشهور الآن : «الشيخ حمد الله». وقد تعلّم الأقلام الستة آخذاً إياها عن خير الدين المرعشي الذي كان يكتب على طريقة ياقوت المستعصمي. كما دقّق وفحص خطوط عبد الله الصيرفي (القرن الخامس عشر م). وكان بايزيد ابن السلطان محمد الفاتح، عندما كان والياً على أماسيا، قد صاحب الشيخ وتعلّم على يديه الخط. ويقال إنه كان يُجِلّهُ ويحمل له الدواة أثناء الكتابة. فلما توفي والده السلطان واعتلى هو العرش من بعده في استانبول عام 1481/866، دعا استاذه فلبّى الشيخ دعوته ورحل إلى استانبول ليصبح معلما للخط في السراي العثماني. وقد استطاع بتشجيع من حاميه وتلميذه بايزيد الثاني (1481ـ1512م) أن يجمع كل خطوط ياقوت الموجودة وكتاباته في خزانة البلاط العثماني ويخضعها لمرحلة من البحث والدراسة العميقة. وقد قام الشيخ بدراسة أسلوب ياقوت حتى استطاع أن يبدع لنفسه أسلوباً خاصاً ويشرع في الكتابة ويتميز بها حتى عرف بقبلة الكتاب.

وأوسع من كتب عن الشيخ حمد الله من الكتاب العرب أبو الفيض المرتَضى الزبيدي (ت. 1791/1205) في رسالته «حكمة الإشراق إلى كتاب الأفاق»، فقال : «ثم انتهت جودة الخط وحسنه بعد ابن الصائغ وطبقته إلى قبلة الكتاب، وشيخ هذا الفن المستطاب من سجدت لجلالته الأقلام واتفق على تفضيله الخاص والعام، الإمام الأوحد والهمام المفرد مولانا شيخ المشايخ حمد الله ابن الشيخ مصطفى

(2) صورة نهاية هذه المخطوطة منشورة في كتاب :

Muammar Ülker, **Calligraphy, Traditional Turkish Art**, Ankara, N.D., p. 16.

الاماسي المعروف بابن الشيخ تَغَمَّدَهُ الله برحمته. ولد تقريبا سنة 847هـ[3] بعد وفاة ابن الصائغ بسنتين أو ثلاثة وهو الذي استنبط هذه السّموت المعروفة في زماننا من خطوط المتقدمين. كما وقع لغيره ممن اخترع الطريقة بين الطريقتين حتى برع كتاب زمانه وفاق أهل عصره وأوانه. وكان والده رجلًا صالحاً مجازاً في طريقة المشايخ السهروردية وقد حل نظره على ولده المذكور حتى فاق بالرتب العالية. وكفاه فخراً أنه ليس على الأرض الآن سند يعتمد عليه إلّا من طريقه ولا طريقة يرغب إليها بين أهل الفن إلّا من تحقيقه وتدقيقه.

ويقال إن الشيخ كتب على خير الدين المرعشي ووفاته في سنة 896هـ وهو على عبد الله الصيرفي وهو على أحمد بن علي المعروف بطيب شاه السهروردي وهو على محمد البوشي العجمي وهو على الولي العجمي. ويقال إن الشيخ كتب بيده الشريفة أربعة وأربعين مصحفاً ونسخة من كتاب «المصابيح» للبغوي وكتاب «المشارق» للصنعاني كلاهما في جلد الغزال وكلا من سورة الأنعام والكهف والأدعية والأوراد مقدار ألف نسخة وجملة من الادراج والطومار»[4].

كان الشيخ حمد الله بارعا أيضاً في الرمي والسبب في حصوله على لقب «شيخ» أنه كان شيخاً لتكية الرماة التي كانت واقعة في «أوق ميداني»، أي ساحة رمي السهام التي أقيمت عقب فتح استانبول فهو لقب يقابل اليوم «رئيس اتحاد الرماة» ولا زال حجر الرماية، أي هدف الرمي المؤرخ 1505/911 موجودا في موضعه حتى اليوم. وتذكر بعض المصادر أنه كان يهوى الصيد والسباحة وكان ماهرا في الحياكة ويقال إنه قطع البوسفور سباحة من سراي بورنو إلى إسكودار[5].

وكانت قد عرضت للشيخ وهو في الثامنة والثمانين من عمره حادثة الرعشة في رأسه. وأما يده وقت الكتابة، فلم ترتعش أبدا حتى كان خطه في أواخر عمره يضاهي خطه في شبابه. وعندما قام سليم الأول ضد والده بايزيد الثاني سنة 1512م، انتقل الشيخ حمد الله إلى بيت له في المداغ في أويسكودار؛ وعندما تولى

(3) لا نعرف مصدر هذا التاريخ؛ ولا شك أنه خاطىء.

(4) مأخوذة عن دراسة مخطوطة لم تنشر بعد تكرم علي برؤيتها والاقتباس منها الدكتور صلاح الدين المنجد، فله الشكر.

(5) Esin Atil, **The Age of Suleyman the Magnificient**, Washington, D. C. National Gallery of Art, 1987, p. 44.

سليمان القانوني العرش، دعا الشيخ حمد الله إلى العودة إلى القصر وكتابة قرآن. ولكن هذا اعتذر بسبب تقدمه في العمر، واقترح أن يقوم بهذا العمل أحد تلامذته، وتوفي بعد شهرين من دعوة السلطان له عام 1520/926م، وصلى عليه صلاة الجنازة شيخ الإسلام آنذاك زنبيللي أحمد أفندي في جامع آيا صوفيا، ودفن في مقابر «قره جه أحمد» الكائنة في حي اسكودار بإستانبول. وقد عدّ الخطاطون الدفن إلى جواره شرفاً عظيما .

وقد نشأ على يديه عدد من الخطاطين لا نعرف عددهم تماما، ولكن العديد منهم كانوا من عائلته؛ وأبرزهم ابنه مصطفى دده الذي سماه باسم أبيه وكذلك صهره شكر الله خليفة. وكان من بين تلاميذه، كما رأينا، الأمير بايزيد نفسه الذي أصبح سلطانا ومحيي الدين جلال زاده وجمال الدين الأماسي وأخوه عبد الله. وقد علم هؤلاء الخط للأجيال التالية. فعائلة الشيخ حمد الله كانت من أكثر العائلات التي خرّجت في التاريخ أساتذة يجيدون ويبرعون في فن الخط.

فن الشيخ حمد الله

كان تطور الخط في العهد العثماني قوياً ومتميزاً، وكل جيل من الخطاطين كان يفوق الجيلَ السابق من حيث الجودة والتوصل إلى درجة أعلى من الكمال. وكان هناك ثلاثة أنواع مختلفة من الخطاطين : أهل الحرف وهم جماعة ممن كانوا يتعاطون الخط كمهنة، وكان لهم مساعدون ومعامل لإنتاج المخطوطات؛ والنوع الثاني هم الهواة الذين كانوا يتعاطون الخط إما للمتعة الشخصية أو لغاية دينية، وكان من بينهم بعض السلاطين والوزراء وشيوخ الإسلام وكبار الموظفين.وقد تفوق بعضهم في هذا الفن كبايزيد الثاني وابنه كركود، اللذين تدربا على يد الشيخ حمد الله؛ والنوع الأخير وهم كبار الخطاطين ممن كانوا يتعاطون هذا الفن محبة لدينهم وللتعبير عن هذه المحبة بأجمل الأساليب والطرق : فهم لم يكونوا من أصحاب المعاشات وإنما كانت تأتيهم مكافآت كبرى من السلاطين ومن هؤلاء الشيخ حمد الله وأحمد كره حصاري اللذان أدخلا، كل بأسلوبه الخاص، تطويرات كبرى على فن الخط.

كان الشيخ أستاذاً في الأقلام الستة، أي الثلث والنسخ والمحقق والريحان والتوقيع والرقاع؛ وقضى عمره في كتابة العديد من المصاحف التي بلغ عددها سبعة وأربعين مصحفا؛ كما كتب العديد من الأنعام الشريفة وأجزاء القرآن ومجاميع الدعاء

والطومار والقطع والمرقعات والأمشاق وغير ذلك. وقد قام الشيخ بكتابة الخطوط الموجودة في جامعي بايزيد في إستانبول وادرنه وجامع فيروز آغا وجامع داوود باشا في إستانبول، وهي على الرغم من أنها نماذج من خطه في الثلث الجلي إلا أنها تعد بدائية بالنسبة لمفهوم «الجلي» الذي ظهر وتطور من بعده. وأهم ما تركته هذه الخطوط في الجوامع التركية أنها جعلت عامة الشعب يستمتعون بجمال الخطوط، فرفعت من ذوقهم وتفهمهم لجمال الحرف والكلمات.

كان الشيخ حمد الله مالكاً للحس الجمالي شأنه في ذلك شأن ياقوت المستعصمي. ويمكننا أن نقول إنه المؤسس الأول للمدرسة التركية العثمانية في الخطوط؛ ويقال إن بايزيد الثاني عندما كان أميراً وحاكماً لأماسيا طلب من الشيخ أن يبتكر قلما يكون خاصا بالأتراك[6]، أو كما تقول الدكتورة أسن أتيل طلب منه أن يأتي بقلم يفوق أقلام المستعصمي جودة وجمالا فاعتزل الناس لمدة أربعين يوما وعاد بعد ذلك بالأقلام التي أصبحت مثالًا ومنهاجاً لكل الخطاطين من بعده[7]. فقد رأينا كيف درس خطوط السباقين وكيف ساعده بايزيد الثاني على تجميع ما خطه المستعصمي في خزانة القصر فتوصل بعد جهد إلى تحقيق تآلف جميل بقي أكثر من قرنين قبل أن يتمكن من أتى بعده من الخطاطين أن يتفوق عليه وهو أول من جعل الخط فناً قائما بذاته وليس مجرد أداة للكتابة. الكتابة بعده أصبحت «فن الخط» واتصفت بالجمال المنبثق عن البساطة.

لقد أدخل الشيخ حمد الله على خطي الثلث والنسخ ما يمكننا أن نسميه بإصلاحات أساسية، فأضفى جمالا باهرا على هذين الخطين. ولو قابلناه مع ياقوت المستعصمي، فإننا نجد أن الحروف التي تخط من أعلى إلى أسفل (ا. ك. ل) لم تكن متوازية بينما نرى الحروف عند الشيخ حمد الله متوازية دائما، وهكذا أزال من الخط الضعف والتفاوت غير المتناغم الذي كان يتصف به خط المستعصمي. وأضفى عليه نوعا من القوة والتوازن والدينامية. لو بحثنا في أعمال ياقوت عن الحروف أو مجموعة

(6) مصطفى أوغور درمان، **فن الخط**، تاريخه ونماذج من روائعه على مر العصور، ترجمه عن التركية صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، 1990، ص. 30.

(7) اسين اتيل، **المصدر المذكور أعلاه**، ص. 44. يظهر أن الشيخ كان ينزوي للتنسك والعبادة مدة أربعين يوما وعندما ينتهي منها لا يلبث أن يكررها حتى استطاع «بمدد من الخضر عليه السلام» أن ينتقي أجمل الأشكال والأساليب من خطوط ياقوت (راجع اغور درمان، **المصدر نفسه**، ص. 30).

الحروف التي أخذها أسلوبا للأداء، لرأيناها موجودة على شكل وحدات متناثرة هنا وهناك. وكانت براعة الشيخ في التقاط الأجمل وقدرته الدائمة على تكرار ما اختاره[8].

فالكتابة التي كان يخطّها تُظهر الانضباط الشديد والدقة، ولكنها تبدو وكأنها تجري منسابة بدون أي جهد وبكل نعومة ورقة. فتلك الحروف الطويلة والمبالغ فيها تساعد على إظهار شكل متناغم مما يعزز حركة الخط[9].

وتظهر المصاحف التي خطها الشيخ حمد الله بقلم النسخ في عهد بايزيد الثاني كانت غنية بالزخرفة. ففي تلك الفترة من أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وأوائل القرن السادس عشر بدأنا نلاحظ انضمام الشريحة السحابية إلى الأشكال الزخرفية في المصاحف التركية، خصوصا الصفحات الأول والفاتحة وسورة البقرة ولوحات رؤوس السور. ولا شك أن الشيخ حمد الله كان على رأس العاملين في هذا الاتجاه.

وقد أجاد الشيخ في صنع المرقعات، وكان يخطّها دون الإسراف في علامات التشكيل وغيرها، ووضع بعضها بالقلم نفسه الذي يستخدمه في كتابة الخط، بينما يوضع بعضها الآخر بمداد الذهب. وهذا أعطى للمرقعة شيئا من الحرية، كما أن طريقته في نثر حبيبات الذهب على مساحة الكتابة أضفت عليها شيئا آخر من الرقة.

مصحف الشيخ حمد الله في مكتبة الكونغرس.

إن أكثر ما خطه قلم الشيخ حمد الله يوجد الآن في مكتبة «سراي طوبقابي» في استانبول، ويوجد بعضها في انكلترا وإيرلندا والمصحف المحتوي على أجزاء من القرآن الكريم الموجود في مكتبة الكونغرس وصلها على الأرجح بواسطة أحد تجار الكتب والعاديات في باريس كيركور ميناسيان في أواخر العشرينات. وكان ميناسيان، وهو أرمني الأصل، قد حصل على مجموعات من الصحائف والمخطوطات الجميلة من مصادر مختلفة باع بعضها وأهدى البعض الآخر إلى مكتبة الكونغرس. وتدل سجلات المكتبة على أن عدد القطع المختلفة الواصلة من ميناسيان كانت تبلغ حوالي 300 قطعة من بينها أربعون مخطوطة أهديت للمكتبة مقابل مساعدة أمين المكتبة

---

(8) المصدر أعلاه.

(9) أسين أتيل، **المصدر المذكور أعلاه**، ص. 44.

لابنة ميناسيان للحصول على ڤيزا لدخول الولايات المتحدة. ولسوء الحظ أن المراسلات بين ميناسيان وأمين المكتبة حينذاك والوثائق الأخرى الموجودة لا تشير إلى هذه المخطوطات بعناوينها. ولما لم يكن هناك متخصص بالشؤون العربية أو الإسلامية في ذلك الوقت بقيت المخطوطات العربية منها والفارسية بدون فهرسة أو وصف وحتى يمكن القول عدم فهم لأهميتها وإن كان هناك إعجاب بجمالها وبغرابتها. ولذلك نحن نرجح ولا نؤكد أن المصحف هذا كان من بين القطع المباعة أو المهداة من ميناسيان إلى المكتبة، ومجموعة ميناسيان في المكتبة تحتوي على عدد من المخطوطات عدا الصحائف الخطية الجميلة والفرمانات وغيرها من القطع، كلفيفة عليها شجرة عائلة الأباطرة المغول،وأخرى عليها شجرة آل البيت فائقة الجمال ومكتوبة بواحد وثلاثين نوعا مختلفا من أقلام الخطوط.

والمصحف الذي نحن بصدده يثير عدداً من التساؤلات؛ وكان لابد لنا من التأكد من أنه بخط الشيخ حمد الله، خصوصا وأن بعض الذين شاهدوه من المتخصصين في الفنون الإسلامية أثاروا بعض الشك في نسبته إلى الشيخ حمد الله؛ ولقد بقي المصحف مدة طويلة قبل أن يعطيه أحد الاهتمام اللازم. وقد تغير هذا الوضع الآن؛ إذ بدأ الاهتمام به من قبل بعض مؤرخي الفن عندما عرض في معرض مكتبة الكونغرس عن «الكتاب في العالم الإسلامي»، وفي السنة الماضية عندما عرض لمدة ستة أشهر في «ساكلر غاليري» في واشنطن.

والمشكلة الرئيسية التي تواجه التأكد من نسبته إلى الشيخ حمد الله هو كون البيانات في نهايته مطموسة وكأن أحداً حاول حكّها ومحوها خصيصاً. ولذلك كان لا بد من محاولة قراءتها بطريقة علمية. وقد قام بعملية القراءة الدكتور «كريستوفر مرفي» المسؤول عن الشؤون التركية في مكتبة الكونغرس والسيدة بربارة ماير ـ جيمس إحدى السيدات المتخصصات بشؤون الحفظ، فصورت المساحة المتضررة مستعملة قلماً فوبنفسجي؛ مما زاد حدة التغاير في الصورة، ولكن ذلك لم يظهر أشكال الحروف بوضوح، فعادت واستعملت قلما ذا أشعة دون الحمراء (infrared) سريعة، وحورت طريقة التحميض لكي تصل إلى درجة عليا من الدكونة والضياء من الصورة الفوتوغرافية وبدراسة الصورة الفوتوغرافية بطريقة فيها تغاير أقل وصورة أكثر ضياء ظهرت الحروف بشكل يمكن معه التعرف عليها. ويقول الدكتور مرفي إن النتيجة كانت تأكيدا، «لما كنت قد اشتبهت به بناء على شواهد عرضية وهو أن الشيخ حمد

الله هو الخطاط. فما تمكنت من قراءته في نهاية المخطوطة أثبت بوضوح أننا أمام أحد أعمال شيخ الخطاطين». ولقد تمكن الدكتور مرفي من قراءة **كاف** وكلمة **حمد وألف** الله **ونون** ابن وكلمة **الشيخ** كاملة. وقد كان الخطاط كثيرا ما يُعرّف عن نفسه في نهايات أعماله هكذا: كتبه حمد الله المعروف بابن الشيخ. على أن ما يزيد في تثبيت نسبة العمل إلى الشيخ حمد الله هو المقدمة الجميلة جداً المهداة إلى فيروز آغا، وهذا نصها:

«رسم خزانة الأمير الأعظم منخر الأمراء والأكابر حاوي المعالي والمفاخر أمير خزاين السلطان آصف الزمان مفتاح الكرم والإحسان نتيجة البيان خلاصة العيان لطيف اللسان عديم المثل في الزمان المختص بمزيد عواطف الملك المعين المنّان الذي لا يسع وصفه في البيان فيروز آغا أدام الله قدره وقيمته وأدام الله عزه ورفعته وأيدت إقباله وسعادته إلى انقراض الدهور والأزمان بحق النبي وآله الطيبين الطاهرين وصحبه أجمعين».

ونحن نعرف أن فيروز آغا دخل في خدمة آل عثمان كأحد العبيد في القصر وتقدم صُعُداً حتى أصبح رئيسا للموظفين والعاملين (خازندار) في القصر أيام بايزيد الثاني (1481–1512م)، وتوفي وهو يشغل الوظيفة نفسها بعد قليل من تسلّم سليم الأول السلطنة، وكان يُعرَف عنه أنه كان رجلًا متديناً وراعياً لأهل الفن والخطاطين، خصوصاً الشيخ حمد الله الذي كان السلطان بايزيد الثاني يعزه ويحترمه. وقد بنى فيروز آغا ثلاثة جوامع في استانبول، واحد منها في الميدان قرب آيا صوفيا وواحد في منطقة طوبخانة والآخر في منطقة كيرك ششما. وجامع الميدان هو من أقدم الجوامع العثمانية؛ وقد زيّن بابه الرئيسي بنقوش جميلة خطها الشيخ حمد الله. فمما لا شك فيه أنه كانت هناك علاقة متينة بين الشيخ حمد الله وفيروز آغا خصوصاً في عهد بايزيد الثاني. ويدل الإهداء على متانة هذه العلاقة، كما يدل على أن الشيخ حمد الله هو الخطاط أو على الأقل أنه أشرف على إخراج المصحف الجميل في معمل القصر. وهذا مما يشير إلى أن تاريخ المخطوطة يعود إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر، وهو العهد الذي كان فيروز آغا يحتل أثناءه وظيفة الخازندار في القصر.

يتألف المخطوط من 66 ورقة (131 صفحة)، يمكن تقسيم بنيتها الفنية إلى أربعة أقسام رئيسية: الإهداء والفاتحة يحتويها القسم الأول؛ سورة الأنعام (الآية 12 وما بعدها) وسورة الكهف يحتويها القسم الثاني؛ سورة سبأ والملائكة (فاطر) يحتويها القسم الثالث؛ وأما القسم الأخير فيحتوي على سورتي يس والفتح. ويبلغ حجم المخطوط 345 مليمترا طولاً، و215 مليمترا عرضاً. وتبلغ المساحات المكتوبة والمزينة ب 238 مليمترا طولًا و145 عرضاً. وأما جلد المخطوط فهو من الجلد البني الداكن وذو أرضية ذهبية ومزخرف بسرّة (ميداليون) بيضاوية على الجانبين. وقد انمحت أكثر تضاريس السرّة على الجانب الأيمن ولم يبق منها إلا القليل من الزخرفة. وأما على الجانب الأيسر، فلا تزال السرّه كاملة تقريباً، وليس على الجهة الداخلية من الجلد أي زخرفة؛ ويظهر أن الوجه الأصلي قد أضيف إليه ورقات حديثة الصنع. وأما الورق فمن نوعية عالية، ويدل على أنه من صنع محلي ولونه وردي، وإن كانت بعض الورقات شاحبة اللون وبعض الزوايا السفلية مبقّعة بالرطوبة التي لم تحدث أي ضرر في الكتابة أو الزخرفة.

وكون المصحف يحتوي على أجزاء فقط من القرآن الكريم، فليس هذا بالغريب. ونعرف أن الشيخ حمد الله كان من عادته أن يفعل ذلك ويجرّب طرقاً وأساليب عديدة في اتجاهه نحو الجودة والكمال. ويتألف القسم الأول من الإهداء والفاتحة، وهو من أجمل ما وضع من الزخرفة والتزايين الإسلامية. فالإهداء مكتوب بخط الثلث الذي أجاده وحسّنه الشيخ حمد الله على أرضية زرقاء تبهر النظر وذات ألوان متدرجة في الزرقة من غامقة وفاتحة وأكثر فتوحة ومزخرفة بتزايين ورقية على أشكال تتداخل مع التزايين الورقية بحركات متناغمة ضمن جدول ذهبي. وأما الفاتحة فأرضيتها ذهبية ومكتوبة بخط الثلث بماء الذهب، وعليها زخارف ورقية تؤلف أشكالًا دائرية متداخلة، وهي من أجمل ما وضعه الشيخ حمد الله. ويتألف القسم الثاني (ورقة أ 3 إلى أ 50) من سورة الأنعام من الآية 12 وما بعدها. وهذا يثير تساؤلا عن سبب غياب الورقتين الأوليين. ومن الممكن أنها سرقت وقد تكون ذات قيمة فنية كبرى خسرناها جميعا؛ ومن سورة الكهف، وهذا القسم مكتوب بالخط المحقق الكبير، وتحتوي كل صفحة على سبعة أسطر، وهي مجدولة بالذهب وكتب على الهوامش «عشر» بالذهب ولكن بدون زخرفة؛ ويتألف القسم الثالث من سورة سبأ وسورة الملائكة (فاطر). وهنا يتغير الأسلوب تماما: إذ نجد على الصفحات أحد عشر

سطرا، ثلاثة منها ضمن لوحات عليا ووسطى وسفلى مكتوبة بالذهب بخط الثلث والبقية بأربعة سطور بين اللوحة والأخرى بخط الريحاني. وقد زخرفت مساحات النص على الصفحتين الأوليتين من هذا القسم (ب 50 وأ 51) بأربعة هوامش ذهبية متناظرة طولية الشكل مزخرفة بأشكال متنوعة، وكذلك الصفحتان الأولَيان من سورة الملائكة (ب 56 وأ 57). وأما القسم الأخير الذي يحتوي على سورتي يس والفتح، فهو مكتوب بخط نسخي؛ وعنوان كل سورة مكتوب ضمن لوحة مزخرفة.

تثير المخطوطة عدة تساؤلات، عدا مشكلة صحة نسبتها إلى الشيخ حمد الله؛ مع أن هناك دلائل كثيرة تشير إلى نسبتها إليه أو إلى مدرسته : كالغنى بزخرفة الظهرية والتموجات الغيمية في الزخارف، كما نرى في القسم الثاني من المخطوطة، وهي مظاهر فنية كما ذكرنا بدأت تنضم إلى الأشكال الفنية التركية ولكن أهم ما في هذه المخطوطة من الناحية الفنية فهو المقدمة الفائقة الجمال في نظر بعض مؤرخي الفن التركي والإسلامي الذين شاهدوا هذه المخطوطة من أمثال أسن اتيل ويلينور سمز، واستنتجوا بسبب ألوانها وأشكالها أنها كانت المثيل الذي اقتداه الفنانون العثمانيون في تزويق وزخرفة الفن الخزفي التركي. فتأثيرها على تطوير الفن الزخرفي قد يكون كبيراً وكبيراً جداً مما يحتاج إلى دراسة أعمق من قبل المتخصصين في تاريخ الفن التركي. وفي الختام يمكننا أن نقول إن هذا المخطوط هو قطعة فنية رائعة نفّذها أو أشرف على تنفيذها فنان فذ هو الشيخ حمد الله. وقد يكون الخط بسبب تنوعه نوعا من الدراسة الفنية (Etude)، ولكن الزخارف، زخارف تدل على أنها صنعت في معمل مُلوكي لشخص ذي أهمية كبرى في القصر، وأنها قد تكون انطلقت منها شرارة جديدة وأسلوبٌ جديدٌ في الفن التركي.

صحيفة المخطوط العربي كموضوع للبحث والوصف

قاليري ڤ پولوسّين*

أريد أن ألفت النظر إلى العناصر الثلاثة التي تستعمل عادةً لوصف صحيفة المخطوط العربي، وهي :

1) مقياس الصحيفة (يعني طول المخطوط وعرضه)،

2) مقياس النص في كل صفحة،

3) عدد الأسطر في كل صفحة.

والفهارس المطبوعة للمخطوطات العربية لا يتّفق بعضها مع بعض من حيث العناصر التي اختارها مؤلفوها لجعلها ميزةً خاصةً للمخطوط. وهناك الفهارس التي تُستعمل فيها العناصر الثلاثة بأجمعها، والفهارسُ الأخرى التي يُستعمل فيها مقياسُ الصحيفة (أو الورقة) وعددُ الأسطر فقط، والفهارسُ التي تضمّ مقياسَ الورقة فقط، وأخيراً تلك الفهارسُ التي لا تضمّ إلّا عدد الأسطر.

فما هو سبب اختلاف المفهرسين وعدمِ التوافق بين الفهارس في استعمال العناصر الثلاثة المذكورة ؟

من الظاهر أن استخراج عنصرٍ ما من العناصر الثلاثة هو من أسهل أعمال الباحث الذي يصف المخطوطات. ولهذا السبب يستحيل أن يكون انعدام عنصرٍ أو عنصرَيْن في وصف المخطوط نتيجةً لسعي الباحث إلى توفير جهوده. وبرأينا، يعود سبب الخلاف بين الفهارس إلى عدم معرفتنا ــ لحدّ الآن ــ للغرض الحقيقي الذي نُدخل من أجله المعلومات الآنفة الذكر في الفهارس وكيفيّة الاستفادة منها. نعم، إن

(*) Valery V. Polossine, Institut des Etudes Orientales — Léningrad.

مقياس الورقة ومقياس النص وعدد الأسطر ـ إذا أخذناها على انفرادٍ كما ترد في بعض الفهارس ـ لا تتضمن أي علم جديد، ولا يبقى لنا إلّا أن نعتبرها كلها مجرّد صفات تميّز مخطوطاً واحداً عن غيره. ومقاييسُ الورقة مثلًا كثيرة للغاية وتتغاير من مخطوطة إلى أخرى بمقادير ضئيلة وفي نطاق واسع لدرجة أنها لا تنصاع للتحليل الإحصائي، وربما لا يمكن إجراء مثل هذا التحليل الإحصائي إلّا بواسطة الكمبيوتر. غير أنه لا بد أن يكون الباحث موقنا ـ قبل أن يقوم بالإحصاءات الالكترونية ـ بأنه لا ينفق كثيراً من الوقت والجهد هدراً، بل يستفيد منها. ومن المستحيل أن يثق الباحث في الوقت الحاضر بأية فائدة من تلك الإحصاءات.

ويجوز أن نقول نفس الشيء عن مقاييس النص المكتوب في صفحات المخطوطة. أما عدد الأسطر فتتلخّص معرفتنا هنا فيما نعرفه منذ القدم، وذلك أن العدد الفردي للأسطر في الصفحة غلب على عددها الشفعي (أو الزوجي)، ولكن ـ لحدّ اليوم ـ لا نعرف سبب أغلبيته الحقيقي.

هذا، ولو أخذنا نفس المعلومات الكوديكولوجية معاً، فيمكن أن نعتبرها نظاماً يترابط كافةُ أجزائه ترابطاً لم نكشف عن طابعه بعد. ويكون هذا النظام المفروض شيئاً طبيعياً للمخطوط العربي التقليدي الذي يبلغ تاريخه أكثر من ألف سنة. وتكفي الإشارة هنا ـ على سبيل المثال ـ إلى أن المسافة بين سَطْرَيْ النص المتلاحقَيْن تُظهِر نفسها في بعض الأحيان كوحدة قياسية يمكن أن نقيس بها لا ارتفاع النص فقط، بل وعرضه أيضاً. وإن هذه الوحدة القياسية تتّفق مع القياس الخطّي القديم الذي كان يستعمل في الدول الإسلامية في الماضي. وتتعلق المسافات بين أسطر النص مباشرةً بعدد الأسطر في النص، وكثيراً ما يفصل المفهرسون بين عدد الأسطر وبين مقياس النص ـ كما قد أشرنا إليه آنفاً ـ ويعلّقونه في وصفهم للمخطوط بمقياس الورقة. وهذا ـ على ما يبدو ـ شيء غير معقول.

إن إمكانية قياس كافة جوانب النص بوحدات الأذرعة الإسلامية القديمة تؤدي بالباحث إلى التساؤل حول إمكانية قياس الورقة أيضاً بنفس الوحدات، كما يظهر مسألة تناسب حجمَيْ النص والصفحة فيما بينهما. وبكلمات أخرى، تظهر ـ وللمرّة الأولى ـ الحاجة إلى التحليل الإحصائي لتلك المعلومات الكوديكولوجية التي كانت تُجمَّع في فهارس المخطوطات العربية طيلةَ سنوات وعقود.

أما طرائق التحليل الرياضية فإنها تطلب دقّة القياس المعيّنة. ويدلّ تصفح الفهارس على أن أوراق المخطوطات كانت ولا تزال تقاس بدقّة منقطعة النظير ـ يعني تقاس تارةً بالميليميترات، وهذا أحسن الحالات، وتارةً بدقة حتى نصف سنتيمتر أو سنتيمتر كامل.

إذا أضفنا إلى ذلك التضارب أن المخطوطات المجلّدة قد تعرّضت كلها في وقتها المناسب لقطع أوراقها في أثناء التجليد، فيمكن القول إن مقاييس الأوراق المذكورة في الفهارس والمقاييس الأصلية لنفس الأوراق تختلف اختلافاً كبيراً. ويجوز أن نقول نفس الشيء تقريباً عن مقاييس النص المسجّلة في فهارس المخطوطات.

وبهذه الصورة، فالمقاسات التي جرت، في حين من الأحيان، بدون القصد للاستفادة منها في المستقبل غير دقيقة؛ ولعلها ـ في أغلبيتها ـ عديمة الفائدة للأبحاث.

ومن الفجعة أنه أُدخلتْ مقاساتُ النص في الفهارس، وهي تقريبية وغير دقيقة؛ إذ إنه من هذه المقاسات بالذات يمكن استخراج وحدة القياس التقليدية المذكورة آنفاً. وفي الحقيقة، ربما ليست مقاسات النص بأحسن المصادر لاستخراج هذه الوحدة القياسية. الواقع أن المخطوطات العربية كلها تقريباً تستبقي آثار «المسطرة» على صفحاتها (والمسطرة، كما نعرف، عبارة عن جهاز بسيط لتسطير صفحة المخطوط للكتابة عن طريق كبس الخطوط على الورقة بالاستنسل [the stencil]، وهذا الأخير هو المسطرة بالذات). وإن المسطرة هي التي يحدّد إطارُها (أو حجمها) أبعادَ النص الهندسية. ولهذا السبب قد يعطينا قياسُ المسطرات أرقاماً أدقّ من أبعاد النصوص الواردة في الفهارس. بيد أنه لم ترد بعد مقاسات المسطرات، للأسف، ولا في فهرس واحد. ويمكن أن نعتبر ذلك تقصيراً في علم الفهرسة العربية.

وأخيراً، إن الإهمال لمقاسات الهوامش هو عيب آخر في الأسلوب المستعمل الآن لوصف صحيفة المخطوط العربي؛ إذ أنه يمنعنا من دراسة الفرضيّة حول المباديء الهندسية لرسم حجم النص على صفحة المخطوط.

وما كان في نيّتي أن أوفّق بين عناصر وصف صحيفة المخطوط الآنفة الذكر بقصد تكوين قواعد معينة للوراقة العربية ـ حقيقة كانت أم فرضيّة ـ، بل وددتُ

فقط أن أدلّ على أن الطريقة الراهنة لوصف صحيفة المخطوط تمكّننا من أن نظنّ، من جهةٍ، أن المخطوطات قد تضمّ بين دفتيها وحدةً قياسيةً خاصةً لقياس جميع أبعادها. ومن جهة أخرى، نفس الطريقة بالذات لا تسمح، مع الأسف، أن يعالج الباحث بإجراء تحليل تلك الأبعاد، لأنه لا تضمّ الفهارسُ المعلومات اللازمة لذلك (المتعلقة بمسطرات وهوامش مثلا) أو لأنه لا تؤمّن الفهارسُ دقّة المقاسات المطلوبة (فيما يتعلق بأبعاد ورقة المخطوط والنص عليها). ولا يبقى لنا إلّا أن نتأسف في هذا الصدد، لأن أكثرية المخطوطات العربية قد وُصفتْ في الفهارس، ولا شيء يساعد على ذلك الأمر المتأسف عليه. أما المخطوطات غير الموصوفة حتى الآن فيجوز أن نصحح ونحسن طريقة وصفها، ويجب الاعتناء بذلك دون تمهّلٍ ولا إبطاءٍ. وفي رأينا، لابد من الاعتناء بالعناصر المذكورة أعلاه وإدخالها في الفهارس الجديدة.

وفي ختام الكلام عن وصف صحيفة المخطوط أودّ أن ألاحظ أنّ استخراج القياس الخطّي التقليدي بواسطة المسافات ما بين أسطر النص هو عامل مهمّ في فحص القواعد الهندسية المطبَّقة في المخطوطات العربية عامّةً، وفي تحديد الميزات الفردية لكل مخطوط على وجه الخصوص. وإضافةً إلى ذلك، يكون استخراجه أيضاً شيئاً هامّا للميترولوجيا العربية التقليدية (أي علم القياس التاريخي) لأنه يمكّن من تحقيق كافة الوحدات القياسية الخطّية المجمّعة في كتب البحث بالأسلوب الجديد ــ أعني المخطوطات العربية المؤرّخة والتي نعرف أمكنة نسخها. ويمكّننا ذلك ــ أو يكلّفنا، على الأقلّ ــ من أن نرسم شيئاً فشيئاً خريطة استخدام أنواع الذراع المتعددة في البلدان الإسلامية المختلفة في القرون الوسطى.

المخطوط العبري صورة من صور المعارف اليهودية الوسيطية

أحمد شحلان
كلية الآداب ـ الرباط

إذا كان مضمون مخطوط من المخطوطات، في علم من العلوم، يعتبر هدفا في حد ذاته، بوصفه وعاء معرفيا يقصد منه اكتساب المعارف لتدبير المجتمعات أو حفظ الأبدان، أو لبناء الأس المنطقي للتدبير في الخالق والمخلوق، فإنه زيادة على ذلك، يعبر عن ثقافة العصر واهتمام الإنسان وهَمّ الحاكم والمحكوم، ويكون أداة تاريخية غير مباشرة لما هَمَّ الصقع الذي ظهر فيه، اعتقادا سياسيا أو معتقدا إيمانيا. كما يعكس الفورة الاجتماعية أو الفكرية التي كان ذاك العصر تربتها، يرفدها بما تجمع لديه من عناصر إنسانية أو تيارات فكرية أنتجها هذا المجتمع أو حملت إليه حملا.

ومحتوى المخطوط، في ضمه الموضوع الواحد أو المواضيع المختلفة، رمز في حد ذاته لا يخلو من خلفية فكرية لها دلالتها. والأدوات المادية عينها التي كونت هذا المخطوط من ورق أو رق، من مداد أو أصباغ، تعكس مستوى حضاريا له قيمته الفنية ومَقْدُراته الإديولوجية. كما أن الملاحظة العابرة التي يضعها صاحب المخطوط، أو أحد قرائه في الهامش أو في الورقة المدخل أو الورقة الختام، تصبح لها قيمتها التاريخية التي تنضاف إلى القيمة المعرفية الأصلية التي احتواها المخطوط.

لقد كان لملاحظتنا المتأنية وتأملاتنا المتواضعة في المخطوط العبري الوسيطي ما أكد كل هذه الحقائق التي أشرنا إليها. لذلك اخترنا أن تكون مساهمتنا المتواضعة: «المخطوط العبري صورة من صور المعارف اليهودية الوسيطية».

كل مؤلف مكتوب هو في الحقيقة صورة لمعارف عصره بالبداهة. وإنما عنونّا بحثنا هذا بالعنوان أعلاه، لأن جل هذه المؤلفات التي كانت ثمرة ذاك العهد ما زالت مخطوطة دون تحقيق أو طبع. وما طبع منها كان متعلقا أساسا بالفكر اليهودي إما مضمونا لأنه متصل بالديانة اليهودية، أو لأنه من مؤلفات علماء و«أحْبَار» يهود. أما ما اهتم به مفكرو اليهود من إرث عربي إسلامي، فدرسوه أو ترجموه، فلم ير النور إلّا النادر النادر منه. ويحتاج إلى جهود جبارة متضافرة لإخراجه إلى يد المطلع والمتفحص.

وقد اهتم العلماء منذ القرن السادس عشر بفهارس هذه الثروة الغنية مما تجمع في مكتبات أوربا من هذا الإرث العبري العربي الإسلامي، مثل فهارس De Rossi[1]، Caldenthal[2]، Steinschneider[3]، Munk[4]، Margoliouth[5]، Freimann[6]، Vajda[7]، C. Sirat[8] وغيرهم. ولكثرة هذه المخطوطات وأهميتها القصوى، خصّصت لها إسرائيل مؤسسة خاصة تعرف بمعهد ابن تصقي، مهمتها جمع هذه المخطوطات والحصول على نسخ منها بالمكروفيلم أو المكروفيش أو التصوير.

وسنعتمد في هذا البحث على بعض مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس. وتعد هذه المكتبة من أهم المؤسسات التي تتضمن أكبر عدد من مخطوطات الإرث

---

(1) De Rossi, Mss. Codices Hebraici Biblioth. I.B. de Rossi Parmae, 1803.

(2) Die nevarworbenen Handschriftlichen hebraïschen werker der K.K. Hofbibliothek ZU Wien 1851.

(3) Cat. Librarum Hebraeorum in bibliotheca Bodllina.. Welt-Verlag Berlin, 1931.
— **Die Handschriften - Verzichniss der Konglichen Bibliothek Zu Berlin**, Berlin, 1879.
— **Die Hebraïschen Übersetzungen des Mittelalters und die Juden als Dolmetscher**, Graz 1956 (rédétion)

(4) — Manuscrits hébreux de l'oratoire à la Bibliothèque Nationale de Paris, notices inédites, Hebraïsche Bibliographie 11-4e vol. 1907 - 10, Francfort-sur-le Main. Kauffmann, 1911.
— Bulletins du fond de l'oratoire, 1 à 159. Mss. (Bib. Nationale de Paris)

(5) — Cat. of the Hebrew and Samaritan, Mss. in the British Museum, London, 1915.

(6) — **Union Catalog of Hebrew Manuscripts and their location**, Cambridge. AT the University Press, 1921.

(7) أعاد G. Vajda وصف المخطوطات العبرية بالمكتبة الوطنية بباريس ولم ينشر بعد هذا الفهرست.

(8) — **Comité de paléographie hébraïque, Manuscrits médiévaux en caractères hébraïques partant des indications jusqu'à 1540**. I.II.III. C.N.R.S. Paris — Jérusalem, 1979.

العبري العربي الإسلامي لأسباب أشرنا إليها في أبحاث أخرى[9]. ولهاتيك الأسباب نتخذ هذه المخطوطات وسيلة نتوسل بها إلى معرفة اهتمام طوائف يهود الغرب الإسلامي الفكرية، وانشغالاتهم العلمية والذاتية. فما هي مواضيع المخطوطات التي تحتويها المكتبة الوطنية بباريس ؟

تتضمن مخطوطات المكتبة نصوصا وترجمات للكتاب المقدس (التوراة) وفهارس توراتية ومأثورات وتفاسير يهودية وفقهاً وتلموداً وتشريعات وعبادات وكتب صلوات وكتب كلام و«لاهوت» وتصوف (قابلا) فعلوم فلسفة، فعلوم العدد الطبيعية والفلك والتنجيم، والطب والجراحة، واللغة والتاريخ، والشعر والمراسلات والفتاوي والفهارس. وتتمثل كل هذه المواضيع في 1430 مجموعا[10].

ووضع المجموع في طريقة جمعه وانتقائه يكون في غالب الأحيان عن قصد وبتفكير، استجابة لرغبة عالم أو مدرسة، بل مجموعة من الدارسين. وقد تكون طريقة جمع المخطوط دالة على نوع من الثقافة التي هي النسق الفكري السائد في مجتمع ما، أو على نوع من الثقافة التي تريد أن تحمي نفسها داخل نوع معين من الفكر يريد جهضها أو القضاء عليها. وهذا ما يبينه المجموع 956 ع، من مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس. فهذا المجموع يتضمن : أخلاق نقماخ، تلخيص ابن رشد، ترجمة شموئل المرسلي، مقاصد الفلاسفة، ترجمة اسحق البلا، تهافت التهافت ترجمة، قلونيموس بن طدروس، مختصر المنطق، ترجمة شموئل بن يهودا، مختصر السماع الطبيعي والسماء والعالم والكون والآثار ترجمة موسى بن تبون، والمقالة الـ XI من الحيوان ترجمة ابن مخير، مختصر الحس والمحسوس وما بعد الطبيعة ترجمة موسى بن تبون، وسماه جامعه الذي جمعه بمرسيليا في منتصف القرن الرابع عشر שושן למדים : «زنبقة المعرفة» أو «زنبقة الطلب»، وافتتحه بأشعار أنبأت عن واقع الصراع الذي كان قائما في القرن الرابع عشر، بين الأحبار والمتنورين من اليهود الذين اعتبروا الفلسفة والمنطق أداتين ضروريتين لتقويم الفكر السليم. وقد استعمل الجامع في شعره ألفاظا حادة عبّر بها هؤلاء المعارضين. والجمع في حد ذاته يظهر

(9) انظر بحثنا : «المخطوطات العربية الإسلامية المكتوبة بالخط العبري أو المترجمة إلى العبرية» في : **المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي، وضعية المجموعات وآفاق البحث**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء ـ ولادة، 1990، ص. 285 وما بعدها.

(10) **— Cat. Manuscrits hébreux et Samaritains de la Bibliothèque nationale** (1866)

هذه النزعة العقلانية إذ ذاك؛ إذ يضم المجموع مجموعة من كتب ابن رشد بالإضافة إلى مقاصد الغزالي دون غيره. وكان وضع المقاصد هنا ذكيا؛ إذ وضعه الجامع مصحوبا بشرح موسى النربوني وتعاليق اسحق البلاك المترجم، والرجلان معا رشديان، فهذا الوضع بهذه الطريقة إذاً يسير في مسار ذلك الصراع الحاد المشار إليه. ويفيدنا المجموع أيضا أمرا آخر له أهميته في تاريخ الفلسفة على العموم، والرشدية على الخصوص. «فزنبقة المعرفة» برنامج قائم الذات لمدرسة فكرية فلسفية كانت بجنوب فرنسا، وبالخصوص في مرسيليا والمناطق المجاورة لها؛ وكان لهذه المدرسة الفكرية اسمها الخاص بها وهو כת המעיינים (أهل النظر). جاء في نص مقاصد الغزالي، في شرح موسى النربوني، مقالة صغرى[11] ليهودا بن اسحق الكوهن، تلميذ شموئل بن يهودا المرسلي، وفيها أطلق على نفسه اسم «صاحب النظر». كما ذكر أنه أرسل رسالة إلى الفيلسوف رأس «أهل النظر» الربي قلونيموس بن اسحق نتن[12]. وجاء أيضا في مخطوطة تهافت التهافت المحفوظة بأكسفورد : قال قلونيموس طدروسي من «أهل النظر»[13]. وجاء في ترجمة مختصر المنطق التي أعدها شموئل بن يهودا المرسلي، والتي يتضمنها هذا المجموع : ... وظل الكتاب مشوشا غامض المعنى، فخفي فهمه عنا نحن معشر النظار[14]. وعليه فإن البروفانس احتضنت في القرن الرابع عشر مدرسة فكرية ربما كان محورها ابن رشد وابن ميمون، وأطلقت على نفسها «أهل النظر» أو «النظار»[15]. ويرى برمان أن مركزها كان بمرسيليا، وأن علماءها اعتبروا أنفسهم حاملي لواء الفلسفة، ومنهم شموئل بن يهودا المرسلي ويهودا بن

---

(11) انظر — La question disputée de l'Essence et de l'Existence vue par Juda Cohen. Archives H.D.L.M.A., p. 44 (1978)

(12) — E. Renan, **Ecrivains Juifs Français**, imp. nationale, Paris, MDCCLXXVII, pp. 653-654.

وانظر في موضوع هذه الفقرة :

כתב יד המכונה שושן למודים ויחסיו ל"קהל המעיינים

הפרבנסאלי, א.ז. ברמן קרית ספר Vol 53, N° 2 (1-2) April 1978

(مخطوط المسمى «زنبقة المعرفة» وعلاقته بفرقة «أهل النظر» بايرڤانس. أ. ز. برمان.

(13) المقالة أعلاه، ص. 371.

(14) انظر نص الخاتمة في مخطوط 956 عبرية – باريس. الورقة 350.

(15) جاء في خاتمة ترجمة تلخيص كتاب النفس لابن رشد، ترجمة شم طوب ابن اسحق : «وهنا ينقضي كتاب النفس لارسطو مع تلخيص ابن رشد المناظر...»
مخطوطة باريس رقم : 965.

اسحق كوهن تلميذه وقلونيموس بن طدروس وقلونيموس بن اسحق نتن، وكان رأسهم ראש המעיבים «وأخذ هؤلاء على عاتقهم تصحيح الترجمات السابقة، ووضع الشروح على كثير من النصوص الفلسفية ومراجعتها ودرسها. ويفترض برمان أن يكون جامع «زنبقة الطلب أو المعرفة» هو يهودا بن اسحق كوهن[16].

ووجد نظير لهذه الجماعة من العلماء في أماكن أخرى من البروفانس؛ إذ جاء في مقدمة إحدى رسائل موسى النربوني الطبيعية[17] أن النربوني هذا عمل الشرح نزولا عند رغبة إخوانه ببيرينيان بعد أن فارقهم، وقد سمي هؤلاء في المقدمة بـ : כת האחים (جماعة الإخوان). وتوحي هذه التسمية بوجود جماعة من المتأدبين الفلاسفة بين ظهراني الطائفة بالمدينة المذكورة، وهو الأمر الذي جاء صريحا في مقدمة حي بن يقظان، حيث دعاهم :
נכבדי החבורה מדורשי החכמה אשר בעיר פרפיניאן
«أعيان الجماعة من طالبي العلم الذين بمدينة بيرينيان»[18].

ومن الجلي أن هذا المخطوط في انتقائه ومقصديته، وما أثاره من قضايا وما لمح إليه من مذهب فكري معين يعتبر علامة بارزة في الانتقاء المعرفي الذي عرفت به مجموعة من علماء اليهود في الغرب الإسلامي. وقد أكد تصفحنا لحوالي ثمانين مخطوطا مقصدية الجامع أو الناسخ في انتقائه، كما بين أيضا غنى هذا الاختيار وتنوعه. إذ تتضمن هذه الثمانون مجموعة ثلاثمائة وثلاثة وأربعين نصا من بينها مائتان وخمسة وعشرون نصا مع التكرار لابن رشد وحده. وهذا يؤكد أهمية ابن رشد عند يهود الغرب الإسلامي في الأندلس وبعد الرحلة من الأندلس، وتضمنت هذه النصوص الرشدية المنطقيات والطبيعيات والإلهيات والمقالات الصغرى والأخلاق وتلخيص المجسطي وفصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة والتهافت والمقالات الطبية. وتبين لنا هذه المجامع الرشدية أن اليهود كانوا يمتلكون في الأندلس نصوصا رشدية مكتوبة

---

(16) مقالة برمان المذكورة أعلاه، ص. 372.

(17) جاء جل هذه الرسائل في مخطوطة باريس 988 (a,b,c,d,e,f,g, 2 et 1). أما الرسالة التي أشرنا إليها فغير موجودة ضمن هذا المجموع، وإنما ذكرها مونك في Notice 988.

(18) مخطوطة باريس 915، ورقة 1أ، ويدعوهم في السطور الأولى من المقدمة : ...«النظار في الحكمة الذين اصطفوني واصطفيتهم...»

بلغتها العربية، ونصوصا أخرى كتبت في أصلها العربي بخط عبري. وبعد أن غادر يهود الأندلس مستقرهم هذا، بل وقبل ذلك، انطلقت حركة هائلة لترجمة النص الرشدي على الخصوص والنصوص العلمية والفلسفية العربية على العموم. وكانت مراكز هذه الترجمات في الأندلس وشمال إسبانيا وجنوب فرنسا وفي إيطاليا وصقلية. وتبرز هذه المواقع تركز الفكر العربي الإسلامي في هاتيك النصوص قبيل النهضة، مما سيجعلها تلعب دورا أساسيا في أدبيات النهضة وفي فعلها وتأثيرها. كما تدلنا على وجود حركة علمية هائلة تأكد وجودها بوجود نساخ و نساخة في الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا وبالأخص في القسطنطينية. ونشطت هذه الحركة خلال القرون : الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، وانشغل التراجمة والنساخ في تلك الفترة، إضافة إلى فكر ابن رشد، بآثار أخرى إغريقية وإسلامية ويهودية ومسيحية تفصح عنها هذه المخطوطات كالآتي :

أ ـ أسرار الحجر الكريم المنسوب لأرسطو. كتاب النبات وكتاب تدبير المنزل له، شذرة من الكتاب الـIV من الطبيعة. مقالة الإسكندر في النفس المقالة المسماة بحرف اللام، شرح تامسيطبوس المجسطي لبطلميوس.

ب ـ حكم الفلاسفة من ترجمة حنين ابن اسحق. الشفاء، الطبيعيات من كتاب النجاة لابن سينا، شرائط اليقين، مختصر لأركنون، فصول يحتاج إليها في صناعة المنطق، العقل والمعقول، مبادىء الموجودات، التنبيه على طريق السعادة، عيون المسائل، في ماهية النفس مقالة في غرض أرسطو من كتاب ما بعد الطبيعة، وكلها للفارابي، مقاصد الفلاسفة ومقالة لأبي حامد الغزالي جوابا عن أسئلة وجهت إليه، رسالة الحيوان لإخوان الصفا، رسالة الوداع ورسالة في نفس الموضوع لابن باجة، نتف من كتاب الزهراوي التصريف، شرح لقسم من تلخيص الفرغاني على الفلك، في دائرة الكرة لابن سهل.

ج ـ فصول من اليد القوية لابن ميمون، في الربو والبواسير والمقالة الفاضلية والفصول في الطب وألفاظ المنطق له أيضا، باب السماء لابن حرسون، تفسير دلالة الحائرين، الجهاد في سبيل الله، شرح مختصر النفس، شرح السماء والعالم، نتف من شرح المقولات، تفاسير توراتية، وهي أيضا لابن جرسون. كمال النفس، تفسير دلالة الحائرين لموسى النربوني. الأمانات والاعتقادات لسعدية كؤون، العناصر لإسحق

الإسرائيلي، مقالة في ماهية النفس لزرحية بن إسحق، مسائل فلسفية لأبراهام بن شم طوب بيباكو، مقالة في الهيولي لشم طوب بن يوسف، كنز الملوك لإسحق بن لطيف، العلم الصغير لموسى بن تبون، مطلب الحكمة ليهودا بن سلمون بن كوهن. شرح الآثار العلوية لشموئل بن تبون. شرح تلخيص البرهان لابن رشد لأبراهام بن شم طوب، الحجر الفاحص لقلونموس بن قلونيموس أشكال الفضة، وفي المنطق ليوسف كسبي. أسس الرهبة الإلهية لأبراهام بن عزرة، صور العناصر لإسحق برقنيل، الروح الرحيم، منسوب ليعقوب أنطولي. ملاحظات فلكية لبروفان دوران. ربع اسرائيل (فلك) ليعقوب بن مخير. مقالة في الفلك لعمانوئل بن يعقوب الترسكوني.

ربع الصورة القمرية، مقالة في تعدد الصور، مقالة هل الوجود حادث بالغرض؟ تعاريف للعناية لأبقور وأرسطو وابن ميمون ولقي بن جرسون، معجم لمفردات نباتية طبية، شرح على قسم من قانون ابن سينا، قائمة بالنجوم الثابتة مع تعيين خطوط العرض مفردات طبية. ولم يرد لهذه ذكر لمؤلف في مخطوطاتنا. تفاسير توراتية لأبراهام بن عزرة ويهودا بن موسى بن دانئيل وزارقة رفات. تفسير من كتاب «مشاهدة الله» لحنون بن سلمون بن القسطنطيني.

د ـ منطق بطرس الإسباني. تعاليق على فقرات من طبيعة أرسطو لـ Robert de Tincoln، تعاليق على النفس له، أسئلة وأجوبة لألبي الكبير.

ويتضح من هذه النصوص التي جاءت في المجاميع التي تضم مؤلفات لابن رشد[19] أن يهود الغرب الاسلامي وأحفادهم ممن انتقل إلى الشمال أو نزل إلى الجنوب كانوا يشتغلون بالإرث الإغريقي والعربي الإسلامي وكذا ببعض الآثار المسيحية مع العناية ببني جلدتهم من يهود الأندلس أو الطوائف الأخرى، كما تدل على ذلك علامات تمليك هذه المخطوطات. على أن اليهود ظلوا يعتنون بها وبنسخها حتى القرن الثامن عشر، بل التاسع عشر، في هاتيك الأماكن المشار إليها أعلاه. فنجد مثلا أن المخطوط :

(19) ذكرنا هنا النصوص التي جاءت في مخطوطات بها مؤلفات ابن رشد دون غيرها، وقد عربنا عناوينها. ولا يعني أن هذه النصوص هي وحدها التي كان يشتغل بها يهود الغرب الإسلامي؛ إذ ضمت باقي المخطوطات التي توجد بالمكتبة الوطنية بباريس مآت من الأعلام الإسلامية وغير الإسلامية، أندلسية وشرقية، ممن اشتغل بعلوم الحكمة وعلوم الرياضيات وعلوم الفلك والطب واللغة والآداب والموسيقى بل والتشريع أيضا.

894 كان في ملك قرسيقاس قرشنط سنة 1435.

899 و925، كان في ملك فردخاي ڤنيزي سنة 1446.

948، اشترى المخطوط كالب أڤوندو پولو، وهو يهودي من مذهب القرائين، أي الذين لا يعترفون إلّا بالتوراة وحده كتابا مقدسا، وكان يعيش بالقسطنطينية، اشتراه لابنه سنة 1489، وكان كالب هذا يضع كثيرا من التعاليق والهوامش على مخطوطاته التي جمع منها كثيرا.

923، اشتراه أپولوس سنة 1538، يقول: «اشتريت هذا الكتاب أنا أپولوس وكنت يهوديا أيام Duc Andrea Gritti سنة 1538/5298... وقد تمسحت عن طيب خاطر تحت ظل المسيح من نسل داوود».

941، كان في ملك اسحق لاتس بـ Carfou سنة 1536، وهي نفس السنة التي نسخه فيها سمحه بن يهودا.

1088، يحمل علامة Dominco Iroslamitans، سنة 1599، دون تاريخ و Allessandro Scipine سنة 1597.

971، يحمل علامة Dominco المشار إليه أعلاه سنة 1599، ويحمل أيضا علامة Grev Don Carretto سنة 1625.

910، كان يمتلكه يعقوب بن اسحق رومانو سنة 1619، وبعده حمل خاتم Vansaleb الذي اشتراه من القسطنطينية سنة 1676.

884، 1150، 928، كلها من مشتريات Vansaleb في القسطنطينية سنة 1676، ونعتقد أن هذا الأخير كان يشتري المخطوطات لـ Colbert الذي ستكون مخطوطاته جزءا مهما من محتويات المكتبة الملكية إذ ذاك، أو المكتبة الوطنية بباريس كما سميت فيما بعد.

3949 نسخ المخطوط بالقسطنطينية سنة 1470، ويوجد به عقد البيع: اشتريت هذا الكتاب أنا أبراهام اليروشليمي إلى سيدي سمحه اليروشليمي رأس الطائفة بالقسطنطينية سنة 1810.

إضافة إلى هذه المعلومات المتعلقة بتمليك المخطوطات، وبعض الإشارات إلى المالكين، هناك إشارات عابرة أتت في مقدمات الترجمات تخبرنا ببعض أدوات العمل

التي كان يستعملها المترجم، وهي عنصر من عناصر ثقافة اليهود إذ ذاك. إذ يحدثنا طدروس طدروسي. مترجم تلخيص الخطابة لابن رشد سنة 1337، أنه استعمل كتاب العين للخليل الذي لم يستطع الحصول عليه المترجمُ شموئل بن تبون، وأنه بفضل هذا الكتاب صارت لديه الترجمة سهلة وميسرة. وإذا علمنا أن شموئل بن تبون المولود سنة 1150 والمتوفى سنة 1232، كان ينتقل بين جنوب فرنسا وإسبانيا، وخصوصا برشلونة وطليطلة، أمكننا أن نطرح السؤال : ألم يكن كتاب العين للخليل متيسّرا أيام بن تبون ؟

كما أن مقدمات المترجمين وهوامش بعض المخطوطات تؤرخ لأحداث تعرض لها اليهود، فنجد مثلا إسحق بن موسى لقّي المعروف بافودي (ق 14—15)، وهو من جنوب فرنسا وتردد على إسبانيا، يستعرض أحداثا تعرض لها يهود إشبيلية وباقي إسبانيا في مؤلفه «خزي الأمم»، الذي ألفه سنة 1391. حيث يذكر أنهم أجبروا على التمسح[20].

ومن أهم ما جاء في هوامش بعض المخطوطات آراء المترجمين أو النساخ، وتعتبر هذه الآراء جزءا من الجدل العقدي الذي كان يجري في هذا المحيط العلمي الذي ذكره ابن حزم كثيرا في مؤلفه الفصل في الملل والأهواء والنحل. ونختار نموذجين اثنين من هذا النوع، أولهما جاء في مخطوط الغزالي، مقاصد الفلاسفة، الذي ترجمه أبراهام بن حسداي بن شموئل هلقّي البرشلوني، إلى اللغة العبرية بين سنتي 1225 و1240[21]. فبعد أن ذكر الغزالي «تطهير النفس بالأخلاق وبين أن الأمور تنكشف للأنبياء والأولياء وتسعد نفوسهم بنيل كمالها بالزهد في الدنيا والأعراض والتبري عن علائقها والإقبال بكل الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له» وليس بالتعليم[22]، أضاف المترجم. «وأقول أنا المترجم : يظهر أن الصوفية لم يحيدوا عن هذا الإيمان الفاسد وإنما هو إيمانهم بمحمد وما قالته عنه أمته، إذ قالوا أنه كان

---

(20) مخطوط بودليين ـ اكسفورد، رقم 2153؛ انظر أيضا **Les Ecrivains**, p. 750

(21) انظر بحثنا «كتاب ميزان العمل لأبي حامد الغزالي، الترجمة العبرية، الميزان بين المفاهيم الإسلامية والتقاليد العبرية» في: Ghazali, **la raison et le miracle**, Maisonneuve et Larose, Paris, 1987, pp. 93-117

(22) **ميزان العمل**، سلسلة ذخائر العرب [تحقيق وتقديم سليمان دنيا]، دار المعارف العصرية، طبعة أولى – 1964، ص. 222.

أميا لم يطلع على الحكمة مطلقا، ولم يقرأ كتبا، ولم يشغل نفسه إلا بالصلاة والتعبد. وهذه حيلة منه حتى يؤمن العامة بنبوته ويعترفوا به»(23).

ويتضح من هذا النص الذي أقحمه المترجم في نص الغزالي نوع من الجدل الذي استعمله اليهود إذ ذاك. أما المثال الثاني فجاء في مخطوطة تهافت التهافت لابن رشد، المخطوطة رقم 910 بباريس. ففي مسألة في إبطال قولهم إن وجود الأول بسيط، أي هو وجود محض ولا ماهية ولا حقيقة ينضاف الوجود إليها بل الوجود الواجب له كالماهية لغيره يقول ابن رشد : ...«وينبغي أن تعلم أن الحدوث الذي صرح الشرع به هو في هذا العالم من نوع الحدوث المشاهد ها هنا، وهو الذي يكون في صور الموجودات التي يسمونها (هكذا) الأشعرية صفات نفسية وتسميها الفلاسفة صورا، وهذا الحدوث إنما يكون من شيء آخر في زمان». بعد هذه الجملة أضاف ناسخ مخطوطة تهافت التهافت، «قال الناسخ : في هذا الموضوع قد أتى الكافر ابن رشد بأقوال قالها المجنون (الغبي) النبي في القرآن في (موضوع) الحدوث يمكن أن تعتبر دلائل على وجود زمن سابق على الخلق وما قبل حدوث بعض الأشياء التي منها خلقت السماوات والأرض. ولم أرد نسخها، ويلزمك أنت أيضا أن لا تبلبل ذهنك، إذ لا عجب أن يأتي هذا الأمر من ابن رشد، وإنما العجب أن يأتي من بعض علمائنا الذين تبلبلت أفكارهم بهذا، كما ذكر الربي موسى (ابن ميمون) في الفصل الثاني من الدلالة(24).

ولا توجد هذه الزيادة إلّا عند ناسخ مخطوطة 910 باريس، وليس لها وجود في أية نسخة أخرى من النسخ التي اطلعنا عليها مما هو معروف حتى الآن. ويقصد الناسخ بـ «الأقوال» الآيتين اللتين جاءتا عند ابن رشد بعد هذه الجملة وهما :«...ويدل على ذلك (الحدوث) قوله : أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا... (الأنبياء 30)» ؛ وقوله تعالى : «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» (فصلت (141) 11).

والغريب أن الناسخ نقل الآيتين مترجمتين إلى العبرية بالرغم من أنه قال لا يريد أن ينقل هذه «الأقوال». والجدير بالذكر أن هذه الفقرة تذكرنا أيضا بمعارضة

(23) نشر نص الترجمة يعقوب كولد نطال بلايبزك 1839، ويوجد النص في الصفحة 49 من هذه النشرة. ويوجد النص في مخطوطتي 911 و912 عبرية بباريس.

(24) مخطوط باريس 910، الورقة 136 ب. ويقصد بالقسم الثاني، الفصل الثالث عشر من دلالة الحائرين.

الأحبار ومن نحا نحوهم للدراسات الفلسفية، وهو ما ألمعنا إليه سابقا.

إن ما ذكرناه أعلاه مما جاءت به مخطوطات باريس العبرية، لا يمثل إلّا جانبا واحداً من جوانب غناها الشكلي، وإلا فإن دراسة مقدماتها وخواتمها وهوامشها وما أضيف في أوراقها الأولى والأخيرة أو ما رسم في حواشيها، أو أنواع الخطوط أو طريقة التسفير أو الأختام التي وضعت على هذه التسفيرات أو أنواع الورق أو الرّق ـ أقول إن كل هذا يمثل معينا ثرا يجب أن تُعَدَّ له العدة المادية والمعنوية لاستخراج معادنه وسبر أغواره؛ وقد يكون هذا المنهج سبيلا آخر لنفض الغبار وإجلاء المعمى عن فترة من أزهى فترات فكرنا في الغرب الإسلامي.

نظرة حول الخط الأندلسي

محمد بنشريفة
كلية الآداب ـ الرباط

لَقِي الخط العربي والمخطوطات العربية في العقود الأخيرة عِناية ملحوظة. فقد نُشِرت نصوص متعددة وكُتِبت بحوث متنوعة حول الخطوط والمخطوطات العربية، ولم تقتصر هذه البحوث وتلك النصوص على التعريف والتاريخ، وإنما شملت تقريبا معظم ما يتصل بصناعة المخطوط كالأخبار أو الأمدة والرقوق وأنواع الكاغد والتسفير أو التجليد وغير ذلك مما يتصل بالخِطاطة والوراقة.

ومع هذا فإن الإضافات ما تزال مطلوبة. وموضوع الخط والمخطوطات في الغرب الإسلامي على الخصوص ما يزال في حاجة ماسة إلى المدارسة، وذلك أن معظم النصوص والبحوث المنشورة تتعلق بالخطوط والمخطوطات في المشرق، والسبب هو وفرة النصوص المشرقية حول الخط وندرتها في المغرب، ومما يدل على ذلك الثبت الذي أعده كوركيس عواد عن الخط العربي في آثار الدارسين قديما وحديثا، فنحن لا نجد فيه كبير شيء بخصوص الخط الأندلسي والمغربي[1].

ومما يلاحظ كذلك أن دائرة المعارف، في طَبْعَتَيْها، خلت من مادة خاصة بالخط في الأندلس أو المغرب؛ ومرد ذلك إلى أنه لا توجد مصادر تساعد على كتابة علمية دقيقة مفصلة في الموضوع. وكل ما نجده أو نعثر عليه إنما هو أخبار متفرقة؛ وعلى شيء من هذه الأخبار اعتمدت دراسات ظهرت منذ زمن لبعض المستعربين؛ ولعل أشهرها وأهمها دراسة عنوانها : محاولة في الخط المغربي Essai sur l'écriture magribine للمستعرب المعروف هوداس Houdas، وقد مر قرن على ظهور هذه

(1) مجلة المورد، العدد الخاص بالخط (1986م)، من ص 377 إلى ص 412.

المحاولة، وبعدها بنحو عشر سنوات نشر المستعرب الإسباني المشهور خوليان ربييرا مقالة عنوانها : المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية : Bibliotolos y Bibliothecas en la España Musulmana. والمحاولتان مترجمتان إلى العربية ومنشورتان[2]، ومع قدمهما وعلى الرغم من مآخذ قليلة عليهما، فإنهما تظلان من المحاولات الرائدة، وقد كتب الكثير بعدهما، وما يزال مجال القول ذا سعة. وسأحاول أن أعرض لبعض الجوانب في الموضوع مِنْ خلال بعض النصوص التي وقفت عليها.

من المعروف أن الأندلسيين والمغاربة عُنُوا عناية خاصة بنوع من الخط أو الرسم هو رسم القرآن الكريم، والمكتبة الأندلسية والمغربية زاخرة في هذا الباب، ولا تعدلها أي مكتبة، ويبلغ نصيب أندلسي واحد هو أبو عمرو الداني في هذه المكتبة مائةً وعشرين مصنفاً، ويعتبر كتابه «المحكم» وكتاب «البديع» لمواطنه ابن مُعاذ الجُهَني من أقدم ما ألف في الرسم المُصْحَفي، وإذا كانت أوضاع هذا الرسم هي «على غير المعروف من قياس الخط» فإننا نجد في الكتابين المذكورين ــ وهما مطبوعان[3] ــ إشارات إلى جذور الخط الأندلسي المغربي وأصوله وبعض الفروق بينه وبين الخط المشرقي، فمن ذلك ما كتبه الداني في المحكم حول ترتيب الحروف وتعليله الاختلاف الواقع بين المغاربة والمشارقة فيه وقد شرحه وبينه بما لم يجده لسالف ولا رآه لمتقدم كما قال[4]، ومن المعلوم أن هذا الاختلاف في الترتيب يظهر في معاجم اللغة ومعاجم الرجال والأنساب وغيرها[5]، وقد استعمل مرارا عبارة : «نُقّاط بَلَدِنا»، يعني الأندلس وذلك في معرض الفرق بينهم وبين نقاط المشرق[6]، وَسمّى مرة أحد أولئك النُقّاط قال : «ورأيت في مصحف كتبه ونقطه حكيم بن عمران الناقط ناقط أهل الأندلس في سنة سبع وعشرين ومائتين»[7] وقال في مكان آخر: «وقد تأمّلْت مصاحفنا القديمة التي كتبت في زمان الغازي بن قيس صاحب نافع بن أبي نعيم

(2) الترجمتان منشورتان في مجلة معهد المخطوطات العربية ومجلة **حوليات الجامعة التونسية**.

(3) طبع المحكم مرتين بتحقيق الدكتور عزة حسن ونشر كتاب الجهني في العدد الخاص بالخط من مجلة المورد.

(4) **المحكم**: 28 (الطبعة الثانية).

(5) راجع في اختلاف ترتيب الحروف بين أهل المشرق والمغرب: **الذيل والتكملة** 1: 6ـ9 **ومقدمة** ابن خلدون.

(6) **المحكم**: 37، 54، 86.

(7) **نفسه**: 87.

ورواية مالك بن أنس». وحكيم بن عمران المذكور هو صاحب الغازي بن قيس[8].

ويبدو أن هذه المصاحف القديمة التي كانت مكتوبة بخط الجزم، وهو الخط الكوفي[9]، لم يبق منها شيء اليوم.

ومن الفروق بين الخط المغربي والخط المشرقي، التي ذكرها الداني، ذلك الفرق المشهور في نقط الفاء والقاف. وهذا كلامه :

«قال أبو عمرو : أهل المشرق ينقطون الفاء بواحدة من فوق والقاف باثنتين من فوقها، وأهل المغرب ينقطون الفاء بواحدة من تحتها والقاف بواحدة من فوقها، وكلهم أراد الفرق بينهما بذلك»[10] ولسنا نعرف متى ظهر هذا الفرق، ويبدو أنّه حدث قبل القرن الرابع الهجري؛ وفي مخطوط قيرواني كتب بالخط الكوفي في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة يبدو بوضوح نقط الفاء والقاف حسب الاستعمال المغربي، وقد حلل هوداس في مقالته هذا المخطوط تحليلا دقيقا[11]، وَلِتَعوُّدِ الأندلسيين والمغاربة على فائهم وقافهم كان الأمر يلتبس عليهم عندما يذهبون للرواية في المشرق ولا سيما في العصور المتأخرة، وهذه لطيفة يذكرها أبو الحجاج البلوي الذي رحل من بلده مالقة إلى الاسكندرية للرِّواية عن الحافظ السِّلَفي قال :

«كنت أقرأ على الحافظ السِّلَفي بالإسكندرية ــ رحمه الله وحرسها ــ جزءا من تآليفه فمررت فيه بحديث يرويه عن أشياخه عن الشافعي رضي الله عنهم قال : الفول يزيد في الدماغ، والدماغ يزيد في العقل ! وأهل تلك البلاد ينقطون الفاء بواحدة من فوق وينقطون القاف باثنتين من فوق أيضا، فلم أُلْقِ بالي وحسبت الفاء قافا فقرأت : القول يزيد في الدماغ، فضحك وكان حلوا ظريفا رحمه الله وقال لي : القول يفْرِغ الدماغ أو نحوَ هذه الكلمة، فقلت له : القول عندي في الكتاب، فقال إنما هو الفُول، فأعلمني بمذهبهم في النقط، فقلت له : كيف يزيد الفول في العقل، ونحن نقول في بلادنا بخلاف ذلك، فضحك وقال : سألت عن هذه المسألة شيخي

(8) انظر ترجمة الغازي بن قيس في **ترتيب المدارك** 3: 114ـ115 وترجمته حكيم بن عمران في (........).

(9) **رونق التحبير**، لابن سماك العاملي (مخطوط).

(10) **المحكم**: 37.

(11) راجع ترجمة مقالة هوداس لعبد المجيد تركي المنشورة في مجلة **حوليات الجامعة التونسية**.

فلانا ـ أنسيت أنا اسمه ـ قال : فقلت له كيف هذا وطبرستان أكثر بلاد الله فولا، وأهلها أخفّ الناس عقولا، فقال لي : لولا الفول لطاروا»[12].

ومن الفروق التي ذكرها الداني بين الخط المشرقي والمغربي رسم لام ألف، وهذا الفرق نجد التنصيص عليه عند أندلسي آخر من أهل القرن السابع الهجري وهو الشريشي شارح المقامات؛ فهو يشرح عبارة الحريري : «فعانقته عناق الألف للام»[13] بقوله : «يريد صورة لام ألف بالخط الكوفي، وهما بذلك الخط متعانقان متلازمان من الأعلى إلى الأسفل، أما بخط المغرب فلا معانقة بينهما إلا في الطرفين، وربما وقعت في بعض هذا الخط كالصَّلِيب، وفي بعضه لا التقاء بينهما البتة»[14].

لقد وجدنا عند الداني ما لم نجده عند ابن عبد ربه في «العِقد» فقد عقد كتابا لأدوات الكتابة لا يوجد فيه شيء يتعلق بالأندلس[15] مع أن حركة الخِطاطة والوِراقة كانت كبيرة في عهده ـ عهد عبد الرحمن الناصر ـ وقد بلغت شأوا عظيما في عهد الحكم المستنصر كما هو معروف، وظهر وراقون وخطاطون وخطاطات وتوجد أسماء عدد منهم عند ابن الفرضي وابن بشكوال وابن الأبار وغيرهم، وفي مقالة ريبيرا تجميع لمعظمهم[16]، ويكفي في الدلالة على مدى ازدهار الخط في الأندلس ما حكاه المؤرخ ابن الفياض قال : «كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها»[17]. وكانت توجد بقرطبة في ذلك العهد أُسَرٌ يَشتغل جَميع أفرادها بالنسخ، وكانت الكتاتيب الخاصة والعامة تُعْنى أوَّلَ ما تعنى بالخط، ونحن نجد صدى هذا كلّه في أشعار رواها الحميدي في الجذوة[18] وابن الكتاني في التشبيهات

---

(12) **ألف باء**، للبلوي، 2: 159ـ160.

(13) راجع المقامة.

(14) **شرح المقامات** للشريشي، 3: 136.

(15) راجع كتاب **المجتبة الثانية في العقد الفريد**.

(16) راجع المقالة المذكورة في مجلة **معهد المخطوطات العربية**.

(17) **المعجب**، للمراكشي: 456ـ457. (ط. القاهرة 1963).

(18) من ذلك قول أبي الأصبغ المرواني في لوح ولده يخاطب أخاه الحكم المستنصر:

هاكَ يا مولاي خطّـا	مَطّه في اللّوح مَطّـا
ابـن سبـع في سنيـه	لم يطق للّوح ضبطـا
لم يقل في الضاد ظـاءً	فحـوى لفظـا وخطـا
دمت يا مولاي حتـى	يولَدَ ابنُ ابنِك سبطـا

ففي هذا المجموع الأخير بابٌ خاص للتشبيهات الواردة في الخط وأدواته لشعراء أندلسيين من عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، وهي تصف الأحرف والأسطر وتشبّه النونات بالأصداغ والسّوالف، والألفات بقدود المليحات[19].

إن ابن خلدون يرى أن ظهور الخط الأندلسي في هذا العهد الأموي كان مظهرا من مظاهر استقلالهم عن المشرق قال : «وتميّز مُلْكُ الأندلس بالأمويين، فتميّزوا بأحوالهم فِي الحضارة والصنائع، وَتميّزَ صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد[20].» وأبرز الأمويين الذين كان لهم فضل في تشييد تلك الحضارة وترقية تلك الصنائع، ولا سيما صناعة الكتاب، هم عبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر صاحب المكتبة المشهورة «وقد جمع بقصره ـ كما يقول مؤلف المعجب ـ الحذّاق في صناعة النسخ والمهرَة في الضبط والمُجيدين في التجليد... واجتمعت له بالأندلس خزائن من الكتب لم تَكُن لِأحد من قبله ولا من بعده، وقلّما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، وقد ذكرت المصادر أسماء بعض النساخ والخطاطين والمراجعين والمفهرسين الذين اشتغلوا في مكتبته[21]، واقتدى به عدد من أهل مملكته لعل أشهرهم عبد الرحمن بن فطيس قاضي الجماعة، وتأتي مكتبته في المرتبة الثانية بعد مكتبة الحكم.

ذكر ابن بشكوال في ترجمته أنه «كان حسن الخط جيد الضبط جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس مع سعة الرواية والحفظ والدراية.

وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده ومستملٍ بين يديه على ما يفعله كبار المحدّثين بالمشرق والناس يكتبون عنه» هـ

وقد وصف بعضهم مجلسه فقال :

«شهدت مجلس القاضي أبي المطرف بن فطيس وهو يملي على الناس الحديث ومستملٍ بين يديه، وكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً، وكان قد رتّب لهم على

(19) كتاب **التشبيهات**: 231ـ235.
(20) **المقدمة**: 956 (وافي).
(21) **المعجب**: 62.

ذلك راتبا معلوما، وكان متى علم بكتابٍ حسن عند أحدٍ من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه وردّه عليه».

وقد وصفوا بناية هذه المكتبة وعينوا اللون الذي اختاره صاحبها.

«وكانت كتبه في مجلسٍ (أي قصر) جُدُراته بالخضرة، وسمكه وسطحه والبرطل أمامه والبسط التي فيه والنمارق كلها خضر».

وذكروا أن القاص صاحب المكتبة «كان لا يعير كتاباً من أصوله البتة، وكان إذا سأله أحدٌ ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير وإلا تركه عنده».

وحكوا «أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية»(21م) وثالث الحكم والقاضي أبي فطيس هو قرطبي آخر اسمه : محمد بن يحيى الغافقي يعرف بابن الموصول (ت 433 هـ). قال ابن الأبّار : «كان أديبا كاتباً جمّاعاً لدفاتر العلم من لدن صباه منتقيا لكرائمها بصيراً بخيارها عارفا بخطوطها يحتكم إليه في ذلك، مؤثرا لها على كلّ لذة، حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع مثله لأحد بالأندلس بعبد الحكم الخليفة.

وكان عنده إصلاح المنطق بخط أبي علي القالي، والغريب المصنّف أصل أبي علي، ونوادر أبي علي، ونوادر ابن الأعرابي بخط أبي موسى الحامض وتاريخ أبي جعفر الطبري بصلة الفرغاني بخط ابن ملول الوشقي.

بيع هذا كله في تركته وأغلى فيها حتى لقومت الورقة في بعضها بربع مثقال»(22).

إنّ تميّز الخط الذي أشار إليه ابن خلدون زاد في عهد الطوائف؛ فقد دعا تعدُّدُ البلاطات إلى تعدُّد الكتَّاب والخطاطين والناسخين. وكثر في هذا العصر انتساخ الدواوين الشعرية والأمهات الأدبية واللغوية وظهرت علاماتُ الضبط وسُنَنُ التصحيح في الجملة، يقول ابن الأفليلي شارح المتنبي :

(21م) **الصلة 1** : 298.

(22) نفسه : 122.

«كان شيوخنا من أهل الأدب يتعالمون أنّ الحرف إذا كتب عليه بصح بصاد وحاء أن ذلك علامة لصحة الحرف.

وإذا كان عليه صاد ممدودة دون حاء كان علامة على أن الحرف سقيم .. ويسمى ذلك الحرف ضبة..»(22م).

ثُمَّ توسّع القاضي عياض بعد ذلك في هذا الموضوع فقعّده في كتابه «الإلماع» وطبقه في كتابه «المشارق»، وقد انتقد الوقشي وغيره من الذين كانوا يتصرفون في النصوص ويصلحونها ثم يتبين أنّ إصلاحهم كان خاطئا(23).

ويمكن أن نرجع أيضا في الموضوع إلى أحد أعلام هذا العصر وهو ابن السيد في كتابه «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب». فقد خصص ستين صفحة للكلام على أدوات الكتابة وتحدث عن أصناف الأقلام وأجناس الخطوط نقلا عن ابن مقلة، وابن قتيبة في كتاب «آلة الكتّاب»، ويلاحظ عليه أنه لم يحدد المستعمل بالأندلس من أجناس الخط التي ذكرها.

إن الخط في عصر الطوائف أصبح حلية يتزين بها أبناء الملوك والأغنياء والفقراء على السواء. فالفقراء كانوا يتبلّغون بها رغم قلة مدخولها. وفي هذا يقول ابن صارة :

أما الوراقة فهي أنكد حرفة ‏ ‏ ‏ أوراقها وثمارها الحرمـــان
شبهت صاحبها بصاحب إبرة ‏ ‏ ‏ تكسو العراة وجسمها عريان(24)

والأغنياء ـ ومنهم أبناء الملوك ـ كانت تُنقذهم هذه الحرفة أحيانا من الضياع، فعندما فقد المُعْتمد بن عباد ملكه لم يجد أحد أولاده ـ وهو يحيى ـ إلا الوراقة يتخذها حرفة. وقد نسخ لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين نسخة من الموطأ، وصلتنا أجزاء منها(25)، وهي آية في الإتقان وعلامة على ما وصل إليه الخط في الأندلس يومئذ من الحسن والجودة، ومثل ولد المعتمد ولدُ ابن الرّميمي، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أنه عاش في فاس بعد الإمارة خاملاً يسكن غرفة ضيّقة ويقيم أوده من نسخ الكتب، وفي ذلك يقول :

(22م) **جذوة المقتبس**: 143.

(23) **الإلماع**: 169ـ176.

(24) **قلائد العقيان**: 259 (ط. 1284م).

(25) توجد في خزانة القرويين بفاس والخزانة العامة بالرباط.

أمْسَيْتُ بعْدَ المُلْكِ في غرفَةٍ ضيّقة الساحة والمَدْخَلِ
تستوحِش الأرْزاقُ مِنْ وَجْهِهَا فَما تزالُ الدّهرَ في مَعْزِلِ
النّسْخُ بالْقوت لَدَيْها وَلَا تقرَعها كَفُّ أخٍ مُفْضِلِ[26]

وفي العصر المرابطي أيضا كانت طبقةٌ أخرى من الخطاطين لا تشكو من الحرمان، وهؤلاء هم كتاب الدولة، وأشهرهم أبو عبد الله بن أبي الخصال الذي كان يخط العلامة السلطانية بمداد خاص، وكان خطه أنموذجاً يُحْتَذَى[27]، وقد كان الكتاب والخطاطون في عصر الطوائف والمرابطين معجبين بخط ابن مقلة، وَينسب لأبي عبيد البكري تارة ولأبي مروان بن سراج تارة أخرى هذا البيت المشهور :

خطّ ابنِ مقلةَ من أرعاهُ مقلتَه ودّت جوارحُه لو أنّها مُقَلُ[28]

ويقولُ ابن قزمان الزجّال المشهور ـ وهو من عصر المرابطين :

وعَهْدي بالشّباب، وحسْنُ قدّي حكَى أَلِف ابْنِ مُقْلَةَ في الْكِتاب[29]

وكان خطه معروفا لدى الخطاطين، قال ابن خليل السكوني في فهرسته ـ وهو من أعلام العصر الموحِّدي : «شاهدت بجامع العَدَبّس بإشبيلية ربعة مصحف في أسفار يُنحى به لنحو خطوط الكوفة إلا أنه أحسن خطا وأبينه وأبرعه وأتقنه، فقال لي الشيخ أبو الحسن ابن عظيمة ـ أشهر مقرىء مجود في ذلك الوقت ـ هذا خط ابن مقلة، وأنشد :

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ودت جوارحه لو أنها مقل

قال ابن خليل : ثم قسنا حروفه بالضابط فوجدنا أنواعه تتماثل في القدر والوضع. فالألفات على قدر واحد واللامات كذلك والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة[30].

---

(26) **المعجب**: 279.
(27) **رونق التحبير** (مخطوط).
(28) **قلائد العقيان**: 190.
(29) **نفح الطيب**، 4: 24. وكما شبه ابن قزمان القد الحسن بألف ابن مقلة شبه آخر الهلال بنون ابن هلال فقال:

وَلاحَ هلالٌ مثل نون أجادَهَا بِذَوْبِ النّضَارِ الكاتب ابن هِلالِ

(30) **نفح الطيب**، 4: 304.

وشاع في عهد الموحدين تقليد ألف ابن مقلة عند بعض الكتّاب والخطّاطين؛ وفي بعضهم يقول أحدهم :

الفقيــهُ ابْــنُ نُصَيْـــرٍ خطّـــهُ خط نبيـــلُ
أَلِفَـــاتٌ كرِمَـــاحٍ بَيْنَهــا المَعْنَـى قَتِيـــلُ

إن هذا العصر الذي تم فيه الاندماج بين الأندلسيين والمغاربة كان عصر غلبة الخط الأندلسي وانتشاره في بلدان المغرب، وذلك بحكم تعلّق الأندلسيين بأذيال الدولة وتشبّثهم بالخدمة في دواوينها؛ وفي هذا يقول ابن خلدون : «فانتشروا ــ أي الأندلسيون ــ في عُدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد.. فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفا عليه وبقي منْهُ رسمٌ ببلاد الجريد»[31].

ونحن نجد مصداق هذا الكلام في مناقضة شعرية بين شاعر أندلسي هو ابن البراء الجزيري وآخر إفريقي هو ابن النحوي الجريدي فقد ذم هذا الأخير خط أهل الأندلس كما ذم إمامَهم ابن عبد البر وردّ عليه ابن البراء بقصيدتين وسماه معتوه قسطلة، ــ وهي بلدة بالجريد ــ[32]. وتذكّرُنا هذه المناقضة بتلك التي جرت بين ابني حزم أبي محمد وأبي المغيرة وبين ابن الربيب القيرواني في المفاضلة بين إفريقية والأندلس[33].

كان عصر الموحّدين ملتقى لمختلف الاجتهادات المغربية والمشرقية في الخط وصناعة المخطوط وكان من كتّابهم ــ وجلهم أندلسيون ــ من «يكتب بأنواع الخطوط من الريحاني والمشرقي إلى غير ذلك فلا يدري مَنْ يزيد في الحسن على صاحبه[34]» وَقَدْ عُنِيَ عبد المومن وبنوه بإتقان الخط وذلك لحاجتهم إليه في وضع علامة «والحمد لله وحده» بأيديهم في صدور الرسائل والظهائر، قال ابن الأحمر في مستودع العلامة : «كانوا يكتبون العلامة بأيديهم ولم يكتبها لهم سواهم، وذلك من أولهم عبد المومن إلى آخرهم أبي دبوس»[35] وقد وصلتنا بعض الرسائل والظهائر من عهد

(31) **المقدمة**: 957 (وافي).
(32) **تحفة القادم**: 15ــ16 (إحسان عباس).
(33) راجع رد أبي المغيرة ابن حزم على ابن الربيب في الذخيرة ورد أبي محمد بن حزم في نفح الطيب.
(34) انظر ترجمة عبد الله بن ذمام في كتاب أعلام مالقة (مخطوط).
(35) **مستودع العلامة**: 21ــ22.

يعقوب المنصور ومحمد الناصر وعمر المرتضى[36] وعليها هذه العلامة التي ذكرها شعراء ذلك العصر كحفصة الركونية وابن مرج الكحل[37]، أما جنس خط العلامة فقد ذهب ابن عبد ربه الحفيد إلى أنه «القلم المسند»[38] بينما قال ابن الوكيل مُخْتَصِرُ نفح الطيب إنه «خط الثلث»[39].

وقد ظهَرَ في الخطِّ الأندلسي نفسه في هذا العهد تنوعٌ ملحوظ، إذْ نجد كتب التراجم تتحدث عن طريقة أهل شرق الأندلس وطريقة أهل غرب الأندلس[40]، وظهرت طرق وأساليب تنسب إلى خَطّاطين معروفين كابن خير الفاسي أو الإشبيلي على سبيل المثال، وفي هذا العهد استقرت مجموعة من قواعد الخِطاطة والنِساخة، وتقررت بعض الأحكام الجديدة في النقط، يقول ابن عبد الملك المراكشي : «إن نقط النون المتطرفة غلط جرى عليه جمهور الكتاب لأن النون المتطرفة لا وجه لنقطها إذ هي متميزة بصورتها، وإنما تنقط مبتدأً بها ومتوسِّطة، وحالها في ذلك حال الفاء والقاف والياء المسفولة فإنهن إذا ما تطرفن تميزن بصورهن فاستغني عن نقطهن، إذ الداعي إلى النقط خوف الالتباس فإذا ارتفع الالتباس كان الاعجام عبئا وكلفة لا جدوى فيهما»[41].

أما نساخة المصاحف فقد عرفت تطورا وازدهارا نستدل عليه بمثال ناسخ واحد فقط هو ابن غطوس الذي كتب فيما يقال ألْف مصحف وصل إلينا بعضها. فقد روى الصفدي أنه «كان له بيت فيه آلة النسخ والرقوق وغير ذلك لا يدخله أحد من أهله يدخله ويخلو بنفسه»[42]. فهذا معمل قائم الذات تام الأدوات.

وقد رأى الصفدي لابن غُطّوس أكثر من مصحف، وقال إنها شيء غريب في حسن الوضع ورعاية الرسوم ولكل ضبط لون من الألوان لا يُخلُّ به فاللازورد

---

(36) انظر على سبيل المثال صورة رسالة المرتضى إلى البابا المنشورة في مجلة **هسبريس**.

(37) انظر أبيات حفصة وأبيات ابن مرج الكحل في **مستودع العلامة**: 22_23 **ونفح الطيب**، 4: 171 (إحسان).

(38) راجع تأليفنا: **ابن عبد ربه الحفيد**: 113.

(39) **مختصر نفح الطيب** لابن الوكيل (مخطوط).

(40) راجع مقدمتنا للسفر الثامن من **الذيل والتكملة**: 130_133.

(41) **الذيل والتكملة**، 4: 138.

(42) **الوافي بالوفيات**، 3: 351.

للشدّات والجزمات واللّكُّ للضمات وللفتحات والكسرات والأخضر للهمزات المكسورات والأصفر للهمزات المفتوحات»[43].

قال الصفدي : «وممن سلك هذه الطريق في المصاحف ابن خلدون البلنسي»[44].

وقد تحدثت المصادر التاريخية بإسهاب عن فنون زخرفة المصاحف في هذا العصر ووصلتنا بعض المؤلفات في صناعة التسفير وغيرها من صناعات الكِتاب[45].

وعندما انتهى زمن الموحدين حدَث ـ كما يقول ابن خلدون ـ تقلص في الحضارة وتراجع في الترف، ولكن آثار الخط الأندلسي ظلت موجودة في دولة بني نصر بِمملكة غرناطة وعند بني مرين في المغرب، وذلك بحكم استمرارهم في استعمال رجالات العهد الموحدي وأولادهم وتلاميذهم من الكتاب والخطاطين وغيرهم.

ونجد حول الخط في العصر الغرناطي فقرة عند أحد المؤلّفين من أهله وَهو ابن سماك العاملي الذي نقل كلام ابن السيد في أنواع الخط ثم قال:

«لا يعرف اليوم في زماننا هذا من أصناف الخط غير أربعة أنواع:

خط المغاربة وهو الخط الذي يكتب به الآن ويستعمل من أقصى المغرب والأندلس إلى الإسكندرية، يُتَداوَلُ الكُتْبُ به أزيدَ من خمسمائة سنة.

وخط المشارقة وهو الذي يُكْتَبُ به في مصر والشام والحجاز والعراق وهو عندهم صغير الثلث.

وخط المصاحف وهو الخط المبسوط المتداوَلُ كَتْبُه لهذا العهد.

وخط الجزم وهو الخط الكوفي ولم يبق منه اليوم إلا رسمٌ قليل في نقش الحيطان وفي بعض المصاحف القديمة»[46].

(43) **نفسه**، 3: 352.

(44) **نفسه**، 3: 352.

(45) من الكتب التي ألّفت في التسفير كتاب **التيسير في صنعة التسفير** الذي ألّفه بكر بن إبراهيم الإشبيلي برسم يعقوب المنصور و**رسالة التسفير** لابن القطان و**تحفة الخواص في صناعة الامدّة** وغيرها.

(46) **رونق التحبير** لابن سماك العاملي (مخطوط).

ويهمنا في هذا النص نوع المبسوط الذي استمر في المغرب وطبعت به المصاحف في المطابع الحجرية وكتب الصلوات والأدعية كدلائل الخيرات وغيرها.

ولا بأس أن نشير أيضا إلى ما كتبه حول الخط في هذا العصر البُنّاهِي في شرح المقامة النَّخْلية ونقتبس منه إشارته إلى مسألة الشكل إذ يقول:

«واخْتُلِف في الشّكْلِ والإعجام فاستقبحه أكثر الكُتّاب في الكتاب إلى الرئيس، وأجازوه في كتاب الرئيس إلى المرؤوس، واحتجوا في ذلك أن الرئيس يجل أن يُنَبّه على خفي أو يُظَنَّ به العجز عن علم مشكل، ثم لا ينكر من الرئيس تنبيه العالم فضلا عن تبصير الجاهل فلذلك رسموا فيه ما ذكرناه وحدوا فيه ما حددناه».

وإلى هذا النحو ذهب شيخ المحدثين بالأندلس الحافظ أبو علي الحسين بن محمد الغساني الجياني فكان لا يعجم ولا يشكل وكان من المعرفة بالمكانة المشهورة وهو مصنف الكتاب المسمى بتقييد المهمل..

ورأى قوم أنه لا يترك في الكتاب ما يجب بيانه كان ذلك لرئيس أو غيره...

وعلى هذه الطريقة جرى القاضي أبو علي الصدفي في كتبه فكان يشكل ما أشكل ويترك ما سوى ذلك[47]...

إن نقوش الحمراء الماثلة والمخطوطات الأندلسية الباقية خير دليل على مستوى الخط الأندلسي في هذا العصر، وقد ظهر فيه خَطاطون لا يقلون في الجودة عن أسلافهم، كما أن فنون صناعة الكتاب استمرت نشيطة، وقد وصلنا كتاب في خواص الأمِدَّة والأحبار وصناعة الكاغد وصناعة التذهيب، هذا الكتاب هو «تحفة الخواص» للقللوسي الذي ألفه برسم ابن الحكيم وزير غرناطة[48].

وهذا الكتاب شبيه بكتاب «عمدة الكتاب» الذي ينسب للمعز بن باديس صاحب المهدية، وهو مطبوع[49].

ولم ينته الخط الأندلسي بنهاية الأندلس الإسلامية، وإنما ظل مرجعا معتمدا بعد ذلك في المغرب الأقصى الذي احتضن تراث الأندلس ومنه الخط وما يتعلق

(47) **الإكليل في شرح رسالة النخيل** للنباهي. مخطوط خ.ع.ر. رقم 198، ص. 141.

(48) توجد منه نسخة في الخزانة الحسنية.

(49) نشر في أحد أعداد **مجلة معهد المخطوطات**.

به.ونحن نجد له استمرارا في عهد الشرفاء السعديين والعلويين ولا سيما في الأوساط المخزنية والأدبية.

وعندما نظم الفقيه الرفاعي منظومته في الخط لم يشر إلا إلى الخط الأندلسي من أنواع، وذلك قوله:

والخط أنواعه لا تنحصر أفرادها يقصر عنها الخبر
لكن خيره الذي انتمى إلى أندلس فسره قد اجتلى[50]

(50) راجع هذين البيتين وما بعدهما في شرح الناظم المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 254د، ص. 271 وما بعدها.

الـخطّ الـمغربيّ والهُويّة الـمفقودة

الناجي الأمجد

منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام، وصل وفد مغربي إلى مكّة للاجتماع بالنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه قبل أن يهاجر إلى المدينة المنوّرة، ويتعلق الأمر بجماعة تتألف من سبعة «رجال» من قبيلة رجراجة أشراف قبائل مصمودة، كان سيدي شاكر بن يعلى بن واصل على رأسها.

وعن طريقها سمعت بلادنا بالإسلام أوّل الأمر حسب ما يرويه سيدي محمد بن سعيد السوسي المرغيتي[1] ولاشك أنّه عن طريق هذه الوفادة دخلت شمال إفريقيا المبادىء الأولى للغة العرب ولكتابتهم. آنذاك كان المغرب ملتقى الحضارات، فمنذ أقدم العصور تلقّت أرضه أفواج المهاجرين الذين وفدوا عليها من آفاق مختلفة.

وكان المغرب على اتصال بالصّحراء وما يقع خلفها تربط بينه وبين ما حواليه عدد من الطّرق كان منها ما يمرّ على ساحل المحيط ومنها ما يخترق وسط الصّحراء، حيث عثر سواء في هذه أو تلك على نقوش لعربات تجرّها الخيول منذ الألف الثاني قبل الميلاد.

ومن ناحية المشرق فإن شمال إفريقيا يتّصل برّاً بآسيا عن طريق مصر. وهكذا فإنّ الأغلب على الظنّ أن موجات بشرية وصلت إلى هذه الجهات قادمة من الشرق خاصّة من فلسطين وسوريا حاملة معها صناعتها وثقافتها. وبدون شك إنّ أفواجاً

(1) د. عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ج 3، ص. 229.

أخرى وردت على هذه الأرض من السّاحل المقابل للحوض المتوسّط : من أرخبيل إيجي ومن الهضاب الإغريقية والإيطالية والإيبيرية.

وسكان هذه المناطق الإفريقية الشمالية الغربية هم البربر ولغتهم هي البربرية. ولقد قيل عنها إنّها منحدرة من لغة قديمة هي «الليبيّة» التي كان القوم يتكلّمونها منذ ألفين من السنين، وهي ذات حروف منفصلة تحمل اسم «تيفيناغ».

وإن كنّا لا نريد أن نخوض هنا في بعض الخلافات فهناك قول آخر مفاده أن البربريّة في حالتها الراهنة ذات صلة بمجموعة اللغات التي تدعى حامية أو سامية أولى، والتي توجد آثارها في اللغة المصرية القديمة. وهي ليست لغة واحدة تنطق بها ألسنة القوم في جميع أطراف الشمال الإفريقي، وإنما هي على الأقلّ ثلاث مجموعات لغوية كبرى تابعة للتقسيم القبلي، وهي :

- المجموعة المصموديّة
- المجموعة الصنهاجيّة
- المجموعة الزناتيّة

وعدد لهجاتها يفوق الحصر، وإن كان المستشرق الفرنسي André Basset قد أحصى ألفا ومائتي لهجة.

وبمجيء الفتح الإسلامي، جعل هؤلاء البربر ينضوون تحت لوائه فاجتمع شملهم، وانجبر كسرهم؛ وحيث إن حياتهم الثقافية والعقلية كانت بدائية، فإنّهم تقبلوا الكتابة العربية بالرضا وسمّي خطّهم «الخط القيرواني» نسبة إلى القيروان التي أنشأها عقبة بن نافع الفهري سنة 50 هـ والتي جعلها العاصمة السياسية للمغرب.

وهذا الخط القيرواني يذكره أبو حيان التوحيدي في رسالته «رسالة الكتابة»(ص 29) كما يذكره ابن خلدون في «المقدمة» (ص 420). هكذا إذن نرى أن انتقال الخط العربي إلى شمال إفريقية كان عن طريق المدينة أوّلا وعن طريق الشّام ثانيا، وكان تطوّر هذا الخطّ يسير بخطوات سريعة في المشرق ومصر وتركيا، في حين ظلّ عند حدّه الأوّل في بلاد المغرب محتفظاً بطابعه الخاصّ.

وقد تعدّدت الروايات في هذا الشأن نظرا لتساؤل الباحثين عن هوية هذه الكتابة أو هذا الخط ؟

فحسب ما أورده ابن حوقل في «صورةِ الأرض»[2] «أن الخط العربي دخل المغرب مع الفتح الإسلامي، ويبدو أنّه أخذ يتحسّن من أوائل المائة الثانية للهجرة، حيث كان صالح بن طريف البربري البرغواطي محسّنا في الخط العربي».

والغالب أن الخط المغربي كان ـ في أول الأمر ـ مطبوعا بطابع شرقي محض، تأثرا بكتابة الفاتحين العرب، بمن فيهم الإمام إدريس الأول وحاشيته المشرقية، ثم أخذ يميل ـ حسب مقدمة ابن خلدون ـ إلى الكوفي والنسخي المستعملين معا في هذه الفترة بالقيروان.

ومما يندر من الوثائق تلك النسخة الخطية الخاصّة بدعوة الإمام إدريس الأول إلى المغاربة[3]، بالإضافة إلى أقدم خط كوفي عثر عليه منقوشا في لوحة مدفونة بناصية البلاط الذي كان فيه المحراب القديم للقرويين الأولى؛ ويرجع تاريخ هذا الخط إلى 263 هـ، أي أنه قبل الخط الكوفي المنقوش بمحراب مسجد قرطبة بإحدى وتسعين سنة[4].

وقبل أن ننتقل للتّقسيم التاريخي الذي تبنّاه أستاذنا محمد المنوني وهو يؤرخ للوراقة المغربية[5] منذ نشأتها، نعتقد أن الكلام عن الخط المغربي وخصوصيات كل نوع من أنواعه أوجب في هذا المقام؛ ونحن بالطبع لا ننوي سِوى المساهمة بشكل أو بآخر في رفع الحيف عن هذا الحاضر الغائب في ذاكرة كل مغربي عن هذا السهل المستعصي الذي كان لطريقة تدريسه بالمغرب اهتمام خاصّ. فالمعلّم لم يكن يعلّم تلميذه الكيفية التي يشكّل بها الحروف، كلّ واحد على حدة حسب طرق معيّنة، وإنما يتخذ منهج التقليد. فهو يقدّم لمتعلّمه كلمات يقلّدها هذا الأخير في رسمها. ويبدي هذا التلميذ كلّ ما في وسعه ليتتبّع خط معلّمه، وهو يعمل في ذلك مثابراً حتّى يجيد الكتابة وحتّى تأخذ أصابعه بناصية هذا الفنّ.

وأنواع هذا الخطّ ـ أي المغربي ـ حسب ما أورده ابن خلدون وما هو متعارف عليه خمسة أنواع :

(2) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص. 82.
(3) د. عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ج 4، ص. 11.
(4) **نفس المصدر** (ج 4، ص. 23).
(5) ذ. محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية**، منشورات كلية الآداب الرباط، 91.

ـ « الأوّل : الخط المبسوط، ويوجد في المصاحف القديمة، وبه طبعت المصاحف المغربية الشريفة في المطابع الحجرية.

ـ الثاني : الخط المجوهر، وهو أكثر الخطوط المغربية استعمالًا، ومن نماذجه خطوط المراسيم السلطانية والرسائل الخصوصية والعمومية، وبه طبعت الكتب العلمية بالمطبعة المحمدية أيام السلطان العلوي محمد الرابع.

ـ الثالث : الخط المسند أو الزمامي : للوثائق العدلية والمقيدات الشخصية وما شابه ذلك.

ـ الرابع : الخط المشرقي، وهو مقتبس من الكتابة المشرقية، ولكن مغربتْه يد المبدعين المتقدمين، وتصرفت فيه أذواقهم، وبه تزخرف عناوين الكتب، وترسم به تراجمها وخواتمها، ويكتب ـ عادة ـ بحروف غليظة متداخلة بعضها في بعض، ومن نماذجه ما علّق على جدران بعض مساجد فاس وغيرها...

ـ الخامس : الخط الكوفي، وهو ما نجده مكتوباً على رقّ الغزال في المصاحف والكتب القديمة، ومنقوشا في الحجر على أبواب بعض المدن والقصبات، ومحفوراً في الجبص على جدران المدارس الأنيقة، والمساجد العتيقة، ومدافن الملوك والأمراء والصلحاء...»(6).

فمن خصوصيات هذا الخط المغربي :

ـ تتميز الفاء بوضع نقطة تحتها، وتتميز القاف بوضع نقطة فوقها.

ـ تهمل نقطة القاف والنون المعرّقتين.

ـ الشدّة عند بعض الخطاطين المغاربة توضع مشابهة للعدد ٧ أو الحرف اللاتيني v فوق الحرف للدلالة على الشدّة والفتحة، وتوضع مشابهة للعدد ٨ للدلالة على الشدة والضمّة، وتوضع مشابهة للعدد ٨ تحت الحرف للدّلالة على الشدة والكسرة (رأينا هذا في عدد من المخطوطات بخزانة القرويين **رحلة العبدري** (رقم 567 خ.ق).

ـ لا يشرك المغاربة نقطتي التّاء أو الياء وكذلك النقط الثلاث للثاء أو الشّين وإنما يكتبونها ظاهرة.

---

(6) **نفس المصدر**، ص. 47.

ـ دقّة رسم الرّاء والزّاي وامتدادهما إلى الأسفل حتّى السطر التالي.

ـ عين الابتداء تستدير استدارة تامة وترتفع إلى مستوى الألف.

ـ اختفاء عقدة الصّاد والضّاد المهملتين.

ـ امتناع التّجليف في الألفات ثم إمالة رؤوسها إلى اليسار.

وليس هذا هو الذي يميز الأبجدية المغربية عن الأبجدية في المشرق أو في غيره. بل كذلك ترتيب الأبجدية والقيمة العددية لرموزها والتي كانت تسمّى «الحمارة الصغيرة». وهكذا فإن :

أ = 1، ب=2، ت=400، ث=500، ج=3، ح=8، خ=600،
د=4، ذ=700، ر=200، ز=7، س=300، ش=1000، ص=60،
ض=90 ط=9، ظ=800، ع=70، غ=900، ف=80، ق=100،
ك=20، ل=30، م=40، ن=50، هـ=5، و=6، ي=10.

كما أن الفضل يرجع للمغاربة في تطوير الأرقام العربية إلى أرقام ترتكز على أساس عدد الزوايا التي تحتويها الأرقام.

ونجد لهم طريقتهم في جداول الضرب التي تسمّى «الحمارة الكبيرة»(7).

ولابد أن نشير إلى محاولة المغرب في تطويع الحروف العربية للمطبعة الحجرية وغيرها كما ظهر خطّ إفريقي موحّد قام باختراعه الأستاذ محمد عبْد الرحمن محمد المصري ويجمع فيه بين خطوط غرب وشمال إفريقيا. وهو نوع من الخطوط الليّنة التي تقرب الخطوط المغربية إلى المرونة وتناسق الحروف، وانسجام الكلمات، وقد طبع مصحفه بهذا الخطّ عام 1964 ويستعمل الآن في شمال إفريقيا.

عوداً على بدء، فإذا تبنّينا التقسيم التاريخي الذي تبناه الأستاذ المنوني وهو يستقرىء تطوّر هذا الخطّ، فإننا نلاحظ ما يلي :

* **عصر المرابطين** : «لقد أخذ الخط الأندلسي يطغى على القيرواني في ظلّ الحكم المرابطي، وظهر ـ في هذا العصر ـ خطاطون على الطّريقة الأندلسية بين مغاربة وأندلسيين استوطنوا المغرب. وقد أدّت مزاحمة الخط الأندلسي للقيرواني، إلى

(7) **هسبريس**، ج 11، المنشورات العربية الإفريقية، ص 151ـ155.

حدوث منافسة بين الخطين؛ وظهر هذا على لسان أديب أندلسي يعارض أديباً من العدوة في هذا الصدد ؛ فقد ذمّ الخط الأندلسي أبو الفضل يوسف ابن النحوي القلعي نزيل فاس، والمتوفّى سنة (513 هـ 1120 م) وردّ عليه في هذا أبو العبّاس بن البرّاء التجيبي ـ من أهل الجزيرة الخضراء ـ في قطعة ميمية من سبعة أبيات»[8].

«ومن الوراقين المغاربة الذين استوطنوا خارج المغرب في هذه الفترة المرابطية : أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطيئة الفاسي نزيل مصر وقد يفهم من الرّغبة في مستنسخاته بمصر أنّه صار فيها يكتب بالخطّ المشرقي»[9].

* **عصر الموحّدين** : في هذا العصر ومن شدة اهتمام أهله بالخط المغربي، فقد نبغ ثلاثة عشر من أبناء عبد المؤمن في تجويد الخط المغربي والعناية به «وامتدح أحدهم بإجادة الخط من طرف الشاعر الأندلسي ابن مجبر، حيث وصف خطّ الأمير عمر بن عبد المومن بهذين البيتين :

تبث يمناه زهرا في الطروس ولا	نكر على السحب أن ينبتن أزهارا
خط هو السحر لكنّا ننزهه	ونجعل القلم النفّات سحارا[10]

بل أكثر من ذلك، «فالخلفاء الموحدون أنفسهم كانوا يجيدون الكتابة بأكثر من خطّ، ويوقعون المنشورات الرّسمية بيدهم»[11].

وإجمالا فقد أبدع الخطاطون الموحدون في الخط، وتفنّنوا في تنويع الخطوط بصنعة متميزة وإبداع متفانٍ فكانت طرقهم في الكتابة مغربية ومشرقية.

* **عصر المرينيين والوطّاسيين** : جاء في مقدمة ابن خلدون وهو يتحدث عن هذا العصر : «وحصل في دولة بني مرين بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي، لقرب جوارهم، وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبا، واستعمالهم إياهم سائر الدولة، ونُسي عهد الخط فيما بعد عن سدّة المُلك وداره كأنه لم يعرف»[12]

وقد كان ابن خلدون يقصد من كلامه هذا الأرياف حيث كان الخط مزدهرا

(8) ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 367.
(9) محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية**، ص. 24.
(10) **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، ط. تطوان، ص. 271.
(11) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج 3، ص. 320.
(12) ابن خلدون، **المقدمة**، ص. 367.

في عدد من المدن المغربية كسبتة، ومراكش، ومكناس، وسلا، وتازة.

ويضيف ابن خلدون : «وحصل في دولة بني مرين بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي» وهو يعني طبعاً الخط المغربي الذي أخذ شكلُه النهائي يكتمل منذ هذه الفترة، وصار متميزا عن الخط الأندلسي في وضعه، وفي إغفال نقط الحروف الأخيرة التالية : ن، ف، ق، ي، وفي عدم تقطيع حروف اللفظة الواحدة بين آخر السّطر وأوّل السّطر التالي، وهكذا صار الخط المتداول بالمغرب من هذه الفترة المرينية ثلاثة أصناف :

- مغربي حضري،
- مغربي بدوي،
- وأندلسي.

واختص بإجادة هذا الخط الأخير بعض الأفراد.

* **عصر السعديّين** : «يعتبر العصر السعدي عهد تجديد شمل عدداً من مظاهر الحياة بالمغرب، وكانت الوراقة من بين الجهات التي استفادت من هذا الإصلاح الجديد فانبعثت أمجادها الغابرة، وابتكرت فيها جملة من الأساليب المستجدّة.

وهكذا أنشىء في المغرب ـ لأوّل مرّة ـ شبه مدرسة لتلقين الكتابة على حدة، ويتعلّق الأمر بإنشاء درس لتعليم الخط في جامع المواسين بمراكش بمشيخة الخطاط البارع عبد العزيز بن عبد اللّه السكتاني، وهو المقدّم لتعليم الخط بجامع الشرفاء من مراكش المحروسة، كما هي العادة في القاهرة وغيرها من بلاد المشرق»[13].

وقد ظلت هذه المحاولة خجولة يتيمة، إذ لم يكتب لها الانتشار بعد ذلك وكان من الممكن أن تخلق تقليداً يعمّ بالفائدة على المغاربة.

وعلى العموم فقد تبنّى هذا العصر تشجيع أنواع الخطوط المتعارفة في البلاد من مغربي وأندلسي ومشرقي.

* **العصر العلوي** : في عهد السلطان الرشيد 1664 م والمولى عبد الله 1757 م عرف المغرب مع الدولة الجديدة حياة الاستقرار، فقد حافظت

(13) محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية**، ص. 75.

الخطاطة ـ مع هذه الفترة ـ على تنوّعها : من التخطيط المغربي، إلى الأندلسي، إلى المشرقي، إلى الكوفي، مع طبع الأنواع الثلاثة الأخيرة بالطابع المحلّي. وقد لاحظ أبو علي اليوسي أن الفترة التي سبقت قيام الدولة الجديدة والفوضى التي عمّت آنذاك تسرّبت آثارها إلى الخطاطة، ولهذا يوصي بالالتفات إلى هذه المهنة، وتنظيم رقابة على الناسخين، فيقول :

«... أما اليوم فقد وقع في الكتب من الفساد ما لا يتدارك، لولا تفضّل الله ـ تعالى ـ لحفظ دينه، وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على الناسخين، وقد اعتنوا بشربة لبن أن لا يزاد فيها ماء، وخبزة أن لا يُنقص منها وزن قيراط، وأهملوا الكتب التي هي قوام الدّين، ومرجع الأمر كلّه»(14).

وفي فترة أخرى أرّخت للملوك العلويين وهم : العاهل اليزيد بن محمد وأبو الربيع سلميان بن محمد وأبو زيد عبد الرحمٰن بن هشام بن محمد. في هذه الفترة تضافرت جهود من الجهات الرسمية، وعلى مستوى نخب من الأعيان، ومن طرف الأفراد.

ولعل أهم حدث يمكن تسجيله في هذه الفترة «ظهور محاولة لبعث قواعد الخط المغربي، وجاءت المبادرة من جهة عالم من منطقة تادلا، وبالضّبط من مدينة أبي الجعد، وهو أبو حفص عمر بن المكّي بن الشّيخ المعطي الشرقي العمري، فيقترح على خطاط من مدينة الرباط عمل منظومة تعرّف بقواعد الخط المغربي، وتحدّد الوضع الأصيل لكتابة الحروف الهجائية، وكان هذا هو أبو العبّاس الرفاعي : أحمد بن محمد بن محمد بن قاسم القسطاسي الحسني»(15) فينظم هذا أرجوزةً باسم «نظم لآلي السّمط في حسن تقويم بديع الخطّ» كتبها الناظم بيده فكانت طريقة تعليمية وبيداغوجية فريدة من نوعها. وهكذا فإن العاهل أبا الربيع نظم مباراة للخطاطين لرصد مجموعة من خطوط المغرب، وازن بينها واختار منها خط العدوتين.

وقد ظهر على العموم فنّ النساخة وأدبها في هذه الفترة «كالابتهاج بنور السراج» لأبي العباس البلغيثي، تحدث عن عود النساخة والقلم، والمداد وتلوينه، والموسى لبري القلم، وإصلاح الكتابة.

---

(14) «القانون»، المطبعة الفاسية : الملزمة 24، ص. 4.

(15) محمد المنوني، **الكتاب السابق**، ص165-166.

ويصف أحدهم خطّ محمد الكبير بن محمد الغرناطي 1899 فيقول : «هو الدّر اليتيم، تغازلت في وجه الرقيم عيونه، وتقوّست لرمي الأغراض نونه، وآفترت عن شنب الإجادة ميماته، واستقامت على عروش السطور ألفاته كقناة في كف محراب، أو إمام في محراب»[16]. وبخطه كانت كتابة المطبوعات الحجرية الأولى بفاس.

«وفي عهد السلطان الحسن الأول ظهر الولع بنسخ الكتب والبحث عن البارعين في الخط المتقنين، فيجلبهم لحضرته للكتابة والنسخ، لا يفارقون حضرته سفرا ولا حضرا، اتخذ لهم محلّا خاصا بهم برحاب القصر، وعيّن لهم من يقوم بشؤونهم..، ويجري عليهم الجرايات الكافية، وينعم عليهم بالنّعم السابغة الضافية...»[17].

ولقد لعبت بعد ذلك سياسة الحماية دوراً خطيراً لمحاربة الخط العربي وهي تسرف في استخدام الحرفِ الأجنبي بديلا عن الوطني، خاصة في المجالات الحيوية كالمدرسة والإدارة. وبشكل أو بآخر كان لا مناص من أن تتأثّر الكتابة العربية بذلك، حتى انحصرت مجالاتها لتكتفي بإعداد المخطوطات التي لم تنشر أو بكتابة بعض المصاحف أو كتب الأحاديث.

أما عن الخط المغربيّ، فيمكن القول على أن المحافظة عليه ترسّخت في بعض المدن والأرياف؛ ففاس، ومكناس، والعدوتان، ومراكش منارات في ذلك الوقت لهذا الخط.

وقد جاء في مقال قديم بجريدة السعادة[18]: «وقد اشتهر بذلك أهل مكناس، وسارت بذكرهم الركبان في هذا الميدان...» ثم يسترسل صاحبه في الكلام وهو يذكر بعض الأسر المشهورة بكتابة وتجويد الخط المغربي.

وفي رأي عبد الحميد الرندي الرباطي، في مسامرته الفاسية، فإن هذا الخط : «أدرك الغاية من الحسن والبها والرونق في الديار الأندلسيّة... ونقل من ذلك إلى العدوتين : رباط الفتح وسلا.. لكن الإنصاف من شيم الأشراف، فالمشاهَد اليوم أن الذين أحرزوا فيه رتبة التقدّم هم أهل مكناس، ويليهم أهل فاس»[19].

(16) محمد المنوني، **الكتاب السابق**، ص. 230.

(17) محمد المنوني، **الكتاب السابق**، ص. 234.

(18) عبد الكبير بن عبد الحفيظ الفاسي – مقالة : المغربي فنان «**جريدة السعادة**»، عدد 4449، السنة 34.

(19) عبد الحميد الرندي الرباطي، المسامرة الفاسية «**الكتابة والكتّاب**»، المطبعة الحجرية الفاسية، ص. 10–11.

بعد هذه الفترات من التطور حلّت معضلة البعثات الثقافية والعلمية، فكان الطلّاب ـ من جنوب المغرب وشماله ـ يرحلون إلى مصر وسوريا ولبنان والعراق، ثم يعودون بعد أن تشبعوا بخطوط هؤلاء المشارقة تطبعا وتقليدا.

غير أن ما يؤسف له هو ظهور فئات من الشباب تكتب بخط لا يمكن أن نقول عنه إلا أنه فاقد لهُويّته المغربية، فلا هو فارسي، ولا هو مشرقي، ولا هو مغربي...

والخط المغربي في وقتنا الحالي يكاد يندثر، اللهمّ إلاّما تبنته الدواوين الملكية في كتابة المراسيم والرسائل والخطب من خط مغربي مجوهر رغم أن الأوسمة وظهائرها أصبحت تكتب بالخط النسخي. يقول الفنان عبد الكريم سكيرج : «فللخط المغربي أشكال وأنواع كافية للتفنن في الطّبع والنشر به، سيّما إذا أدخلت عليه التحسينات التي تُلبسه حلة العصر الجديد، ولكن دون أن تفقده شخصيته وملامحه، فالخط المغربي في نظري يلزم أن يبقى مغربيا، لتناسبه وتلاؤمه مع كل ما هو مغربي من ملبس ومطعم وهيأة وصناعة وأخلاق وعادة، ويجب أن نشيد به ونعمل لتقدّمه وتطوره وإحيائه هذه الحياة التي بدأت تبشّر بدبيبها وسريانها في صنائعها ومنتوجاتنا وأفكارنا. والخط المغربي يلزم أن يبقى مغربيا مادام المغرب معروفا بجمال الزليج في تزويقه ونقش الجبص في تنميقه وبالقرمود الأخضر في تنسيقه وماء الفوارات في تدفقه، وما بقيت الجلابة والكساء والحياء في النساء، ومادامت فاس بجناتها وقصورها وشموسها وبِدُورها، والرباط بحسّانه وشالّته،... والحمراء بنخيلها وكتبيتها، وجامع الفناء وضجتها»(20).

وبعجالة أعرض بين أيديكم مقترحات تعليمية وبيداغوجية للنهوض بهذا الخط من جديد، وبكل تواضع بدا لي الشيء الكثير وأنا أتحدث مع بعض المختصين في المخطوطات إذ لوحظ أن جلّ الباحثين المغاربة أصبحوا يعزفون عن التعامل مع المخطوطات المغربية، أو التي كتبت بخط مغربي، بل منهم من يعجز حتّى عن قراءتها، علماً بأن معظم الكتب والمخطوطات المحفوظة في الخزانات المغربية منسوخ بالخط المغربي.

ومما يؤسف له أكثر أن بعض الكتب التعليمية للخط تصدر في بلاد العرب

---

(20) محمد سكيرج، **مجلة الثقافة المغربية**، عدد 2، شتنبر 1941، ص. 67-72.

ولا أثر فيها للخط المغربي بينما تفيض في الحديث عن باقي الخطوط. ترى هل كتب على ناصية المغاربة أن يمحي خطهم ـ لا قدّر الله ـ ؟

ومن قبيل ما نقترحه :

1 ـ أن تعود الكتابة للأوسمة والتشريفات بهذا الخطّ على أساس أنّها تصل أكبر فئة من الموظفين والمثقفين.
2 ـ ضرورة إدراج هذا النوع من الخطوط في جميع النصوص والأمثلة التوضيحية في كتب التلاميذ ومقرراتهم.
3 ـ تبني المجالس البلدية تنظيم دورات صيفية لتعليم هذا الخط للكبار والصغار.
4 ـ تنظيم جائزة سنوية للمهرة في هذا الخطّ.
5 ـ طبع عدد من قصص الأطفال بهذا الخط.
6 ـ العمل على إدخاله للحروف المطبعية وفق متطلبات العصر.
7 ـ كتابة اللافتات الإدارية والملصقات بهذا الخط.
8 ـ الإكثار من هذا الخط في لوحات الإشهار والجرائد.
9 ـ تهييء حصة للأقسام الابتدائية والإعدادية لدراسة جمالية هذا الخط.
10 ـ ومن باب الإنصاف أننا نشكر الأستاذ المنوني على ما قام به من جهد للتعريف بهذا الخط وندعو الباحثين للسير على هذا الدّرب.
11 ـ وأخيرا يراعى في هذا كله عدم معاقبة الأطفال والتلاميذ على الخط ورداءته، ففي هذا كرههم ونفورهم.
12 ـ كما أن الكتابة بالقلم الجاف في المرحلة الابتدائية لا تسمح للتلميذ بتحسين خطه.

وعلى العموم، فإن الخزانة المغربية تزخر بذخائر هذا الخط ومنافعه، وهناك مئات من المخطوطات التي تنتظر من ينفض عنها غبار النسيان. ولكي يتم هذا التواصل بين القارىء والحرف بصفته متكلّما أزليا عن مادة معينة، «لابد إذن أن نوقظ من جديد لغة العين، وأن نحيي في العين لغة كانت تحسنها في الماضي وتجيدها وكانت تتواصل عبرها مع هذا الفن نفسه، فواحدة من خصوصيات الخط العربي أنه فنّ يتوجّه أولا للعين ويأخذ من العين طريقا للوصول إلى الإنسان ككائن موحد»[21]. يقول عليه الصلاة والسلام : «الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً».

(21) سمير الصائغ، **الفن الإسلامي**، دمشق.

لماذا كتبت عجمية الموريسكيين بحروف عربية

الحسين بوزينب
كلية الآداب ـ الرباط

إننا اليوم نضع تحت عبارة **aljamía** أو literatura aljamiada ذلك النتاج الأدبي المكتوب بلغة المدجنين والموريسكيين الرومنسية وبحروف عربية. ولكن يجب أن لا ننسى أن العجمية بالنسبة لهؤلاء كانت تتخطى هذه الفترة القريبة منهم تمتد إلى تلك الحقب السابقة التي كانت بالطبع أقل إنتاجية منها. إننا سنجد بدون شك أن هذه الفترة (فترة المدجنين والموريسكيين) أفرزت نتاجاً ناضجاً في غاية الأهمية. والسبب في غياب تطور هذه الظاهرة في الحقب التي زرعت فيها البذرات الأولى يرجع إلى عدم توفر الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية التي ستُعرف زمن المدجنين والموريسكيين. فالتطور الحاصل في الخريطة اللغوية الأندلسية نتيجة التحولات الاجتماعية العامة خلال فترة الاسترجاع المسيحي للأراضي الأندلسية سيكون هو المنطلق للظاهرة الأعجمية في صورتها الناضجة.

لقد سبقني إلى التفكير في هذا الموضوع عدة باحثين تقدموا بتوضيحات وتعليلات مهمة جداً تتعلق خصوصا بالحالة اللغوية التي كانت عليها الأراضي التي استرجعها النصارى. فـ Ma. Jesús Viguera في الدراسة القيمة التي قدمت بها كتاب Relatos píos y profanos الذي حققه F. Corriente[1] تقول بخصوص ما كان قد عبّر عنه A. Dominguez Ortiz إنّ نظرية Dominguez Ortiz الصائبة قد تأكدت، حيث كان قد أشار، منذ سنة 1949 وخصوصا منذ 1962، إلى

(1) F. Corriente Córdoba, (prólogo de Ma Jesús Viguera), **Relatos pios y profanos del ms. aljamiado de Urrea de Jalón**, Zaragoza, Instituto Fernando el Católico, 1990, pp. 17 a 25.

الوضعية اللغوية للموريسكيين في جزيرة الأندلس ووصفها «بعدم التجانس» وذلك لأنّ المدجّنين القشتاليين كانوا – كما يؤكد ومعه الحق في ذلك – قد ضيعوا اللغة العربية تماماً. ففي سنة 1462 اضطر مفتي Segovia إلى كتابة مؤلفه الديني Suma de los principales mandamientos de la ley alcoránica باللغة القشتالية. نفس الوضع عُرف في أراغون. وتقابل الباحثة المذكورة هذه الحالة بتلك المعاكسة التي عرفت في كل من بلنسية وغرناطة، حيث كان للغة العربية بين المدجنين والموريسكيين استعمال عادي في الحياة اليومية وفي شتى الميادين الأخرى. وتفضي الباحثة إلى القول إن استعمال الحروف العربية لكتابة الإسبانية سيتولد داخل إطار حركة المدجنين القشتالية والأراغونية. وتضيف «إنّنا نجهل الظروف الملموسة التي أدت إلى ظهور هذا الأمر الدال عن تراجع في الاستعمال اليومي للعربية بين مجموعات المدجنين الذين بدأوا في استعمال الأعجمية».

ولنا رأي آخر في الموضوع أدلى به Mikel de Epalza[2] يعتبر أن استعمال الخط العربي لكتابة اللغة الرومنسية راجع إلى مجهود ثقافي مهم قام به المسلمون الإسبان كمشروع لخلق حضارة إسلامية إسبانية كتلك التي ظهرت في الشرق، تعبر باللغة الإسلامية التركية أو الإسلامية الفارسية أو كمحاولة الموحدين الأوائل خلق ثقافة إسلامية بربرية مكتوبة. فكان هذا بالنسبة إليهم بمثابة شكل من أشكال الحفاظ على الولاء لدينهم الإسلامي داخل ثقافة ليست عربية وكبديل للثقافة الإسلامية العربية الأندلسية.

لا يدخل Ottmar Hegyi[3] في مناقشة جانب نشأة الظاهرة الأعجمية، ولكن يعلل ظاهرة استعمال الحروف العربية. فاستعمال هذه الحروف من قبل الموريسكيين يرجعه إلى القدسية التي تختص بها الكتابة العربية وكذا إلى موقف تعاطفي معها.

هذه بعض الآراء التي وقفنا عليها بخصوص أسباب نشأة واستعمال الحروف

(2) Mikel de Epalza, «Un manuscrito narrativo normativo árabe y aljamiado : problemas lingüísticos, literarios y teológicos de las traducciones moriscas» en **Les actes de la première table ronde du CIEM...**, Tunis, Publication du Centre de Recherches en Bibliothéconomie et Sciences de l'Information, 1980, pág. 43.

(3) Ottmar Hegyi, «El uso del alfabeto árabe por minorías musulmanas...» en **Actas del Coloquio Internacional sobre literatura aljamiada y morisca**, Madrid, Ed. Gredos, 1978, pág. 162

العربية لكتابة اللغة الرومنسية. وقد تلاحظون أنني أشرت في نفس الوقت إلى الآراء التي أدْلي بها حول احتفاظ وضياع اللغة بين الأندلسيين، لأن الأمرين مرتبطان ارتباطا عضويا.

إن منهجيتنا في دراسة الموضوع المقترح تتوخى وضع تسلسل، وإن لم يكن كاملًا، للظاهرة الأعجمية. فعلى الأقل سيحاول تقديم طرح ممكن لذلك التسلسل يرتكز على تتابع للأشياء ويتحاشى كل تعليل بواسطة ظواهر غير عادية.

إن طرحنا يتلخص في اعتبار أعجمية الخامس عشر والسادس عشر مرحلة نضج نهج لغوي انطلق من فترة وصول العربية إلى الأندلس وليست من ابتكار مراحل متأخرة كما يقول بعض الباحثين مثل L.P. Harvey(4) الذي اعتبر أن مفتي Segovia عيسى بن جابر (ق. XV) هو الباعث لهذا الأدب الأعجمي، حيث سانده في هذا باحثون أمثال Mikel de Epalza(5) الذي قال : يمكن الإدلاء بالطرح الذي قدمه Harvey والمساير للمعطيات المتوفرة لدينا والمتمثل في اعتبار مبدع نسق تمثيل النصوص الإسلامية بالرومنسية (الأعجمية) هو عيسى بن جابر، مفتي Segovia.

إن سبباً بسيطاً جعلني أذهب إلى ما سبق. إنه لمن المدهش حقيقة أن نعاين درجة التناسق التي استطاع أن يتوصل إليها نظام تمثيل الرومنسية بالحروف العربية في القرن السادس عشر، وحتى زمن عيسى بن جابر، وكذا انتشار ذلك النسق عبر مساحة شاسعة في ظروف تاريخية لم تكن فيها وسائل التواصل والنشر الحديثة متوفرة بعد حتى يكون من إنتاج ونضج فترة وجيزة. (إن رحلة el Mancebo de Arévalo تلميذ عيسى بن جابر [continuador de la tradicíon de 'Isa de Yebir] عبر مختلف المناطق الأندلسية ــ التي يعتمد عليها Harvey ــ غير كافية في نظري لتثبيت وتعميم هذا التمثيل الأعجمي، هذا إذا قبلنا فكرة اعتبار el Mancebo أحد رواد الأدب الأعجمي الأوائل). إنني لا أريد أن يفهم من لفظة «التعميم» الخضوع التام من قبل كافة الكتاب المؤعجمين (aljamiados) لنسق منتظم ومحدد تحديداً دقيقا يسايره أوتوماتيكيا الكتاب المذكورون، لأن هذا أمر لا يمكن أن يحدث حتى في زمننا الحاضر

(4) «El mancebo de Arévalo y la literatura aljamiada», **Actas del Coloquio Internacional sobre literatura aljamiada y morisca**, Madrid, Ed. Gredos, 1978, pág. 35.

(5) **El Cántico islámico del morisco hispanotunecino Taybili**, Zaragoza, Instituto Fernando el Católico, 1988, pág. 10.

حيث تتوفر الأوتوماتيكية الحقة وتعميم وسائل الإعلام، بل التوصل إلى نوع من الإجماع على أهم الجوانب الأساسية كتمثيل الصوائت وحروف الصفير والحروف الشديدة... وسيبقى بالطبع مجال مرن لتدقيق الجوانب غير الأساسية في ذلك التمثيل كإضافة التمييز بين تحقيقي الفونيم الرومنسي [d] وتمييز تحقيق [r] آخر المقطع أو تبيان خاصية التعطش (africación) في [Z] و[Ç] بإضافة التشديد... إلخ.

ومن ناحية أخرى يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الحروف العربية المستعملة في الأعجمية التي سميناها بالناضجة، أي تمثيل الصائت e بالفتح + الألف وi بالكسر وč بالجيم المشددة وŋ بالنون المشددة وp بالباء المشددة وç بالسين وs بالشين وl̦ باللام المشددة... إلخ. ليست بالضرورة مقابلات أوتوماتيكية للأصوات الرومنسية كما قد يبدو لأول وهلة، وذلك لأننا إذا حللنا مثلًا الطريقة العفوية لتمثيل الأسماء الإسبانية من قبل العرب في الوقت الراهن، سيفاجئنا من غير شك غياب كل تناسق في الاختيارات التمثيلية عند مختلف الأشخاص الذين التجأوا إلى الحروف العربية لكتابة القشتالية الحالية.

فلنتصور إذا، وللحظة فقط، وصول العرب إلى الجزيرة الإيبيرية في زمن كانت فيه اللغة التي كان يتكلمها سكان هذه الربوع، أي تلك اللاتينية المنحطة أو الرومنسية القريبة منها، لم تكن تتوفر بعد على رموز لتمثيلها أو بعبارة أوضح لم يكن لها آنذاك كتابة، أي أننا بصدد حالة شبيهة بما هو عليه الأمر حاليا بالنسبة للغات العربية العامية التي ما زالت تفتقر إلى نسق خاص بها لتمثيلها. أضف إلى ذلك أنه حتى ولو كان لتلك اللغة الرومنسية أو اللاتينية المنحطة جهاز تمثيلي، فإن العرب والبربر القادمين إلى الأندلس كانوا يجهلون ذلك الجهاز. لذا نجد أنهم إذا احتاجوا في ظرف من الظروف إلى كتابة اسم شخص أو مكان ما أو جملة أو تعبير بلغة المسيطَر عليهم، فممّا لا شك فيه أنهم سيُثَبِّتونها بواسطة النسق التمثيلي الذي يعرفونه والمتعودين عليه أي النسق العربي بطبيعة الحال. فمن الطبيعي أن أي مجموعة لغوية تفضل دائما استعمال النسق الخاص بها حتى ولو كانت تعرف نسق الغير، ولنا مثال حي في ذلك ما نراه بين المعربين الأوربيين عامة الذين يفضلون استعمال الحروف اللاتينية لكتابة ودراسة العربية رغم معرفتهم لرموز هذه الأخيرة، أو المثقفين العرب المحدثين الذين يكتبون الأسماء الأجنبية بالحروف العربية رغم معرفتهم لرموز اللغات الأجنبية.

فهكذا إذا اعتبرنا أن عجمية الخامس عشر والسادس عشر تمثل الفترة الناضجة لهذا الأدب، فما هي جذوره وكيف وصل إلى هذا النضج ؟

إننا لا نملك أي كتاب يبين لنا الطريق الذي سلكه هذا الأدب الأعجمي حتى أدرك هذه الوضعية التي سميناها بالناضجة. لذا فإن تقصيا كالذي نقترحه يتطلب اقتفاء الآثار الباقية عبر مختلف الكتب العربية لنتمكن من استخراج معطيات توضيحية لهذه الظاهرة، وكأننا بصدد عمل أركيولوجي لإعادة رسم الطريق المذكور وتكوين فكرة متناسقة حول هذا الموضوع. وتحليلنا سيرتكز بالخصوص على طرق التمثيل مع إيجاد تعليل لها. ولكنني سوف لن أستطيع القيام بتقصي جميع الكتب العربية التي تحتوي على كلمات إسبانية، الأمر الذي قد يكون أساساً لبحث جامعي مطول، بل سأكتفي ببعض الأمثلة من مختلف الفترات لأبين ما أنا بصدده هنا وسأتخذ بعض العينات من هذا التمثيل. فإذا وجدت نصوصاً، فسأحلل النصوص؛ وإلا فسأكتفي بأسماء الأشخاص والأماكن التي نجدها في مختلف الكتب العربية المنتمية إلى فترات التعايش بين شتى العناصر العربية الإسبانية في الجزيرة الإيبيرية.

سأبدأ ببعض أقدم ما وصل إلينا، أي بمختلف أسماء الأشخاص والأماكن، والنصوص القصيرة المنتشرة في كتب التاريخ والأزجال والخرجات التي تختم بعض القصائد الأندلسية... إلخ.

1) ابن حيان (القرن العاشر)

إن هذا المؤرخ يقدم لنا أسماء أعلام عديدة تبين لنا من خلال كتابتها المطابقة التي كانت لديه بين الأصوات العربية والرومنسية :

الصوائت :

ـ الصوت الإسباني	يقابله في العربية
a	الفتحة، الفتحة + الألف
e	الفتحة، الفتحة + الألف، الكسرة
i	الكسرة، الكسرة + الياء
o, u	الضمة، الضمة + الواو

من الملاحظ هنا أن الاستطالة في شتى الحالات : تتطابق مع موضع النبر الإسباني :

a : ناجارة Nájera.

e,i عند كتابتها بالكسر : تطيلة Tudela ـ شنترين Santarén

o,u : قومس Gómez ـ بنبلونة Pamplona ـ أشونة Osuna ... الخ

نجد كذلك هاء السكت عند انتهاء الكلمة بصائت : تطيلة Tudela ـ ناجارة Nájera ـ سلمنكة Salamanca.

الصوامت :

الصوت الإسباني	يقابله في العربية
s	ش
ç,z	س
č	ج
t	ط،ت
k	ق،ك
l	لي
g	ق

نلاحظ أن الصوت الإسباني [ç] يجد كمقابل له حرف الجيم كما هو الشأن عند المدجنين والموريسكيين، أي في التمثيل الناضج ولكن بدون تشديد.

2) والخرجات التي تعتبر من أقدم النصوص تدوينا للإسبانية، سنخضعها كذلك لنفس التحليل. وقد اعتمدنا تلك التي نشرها الأستاذ E. García Gómez في مجلة Al-Andalus سنة 1952.

الصوائت :

الصوت الإسباني	يقابله في العربية
a	فتحة، فتحة + ألف، فتحة + ي
e	كسرة، كسرة + ي، فتحة + ألف
i	كسرة، كسرة + ي
o,u	ضمة، ضمة + واو

الصوامت :

الصوت الإسباني	يقابله في العربية
s	ش
ç	س
v	ف
k	ك، ق
p	ب
g	ق، غ
l̮	ل + تشديد
z,dz	ج
t	ت، ط
ň	ن + ي

نلاحظ كتابة هاء السكت عند انتهاء بعض الكلمات بصائت.

3) ابن قزمان

الذي عاش في النصف الأول من القرن الثاني عشر يرصع أزجاله بمجموعة من النصوص القصيرة بالرومنسية تقربنا من الخصوصيات الصوتية لهذه اللغة. وقد اعتمدنا تحقيق الأستاذ F. Corriente[6].

(6) F. Corriente Córdoba, **Gramática, métrica y texto del cancionero hispanoárabe de Aban Quzman**, Madrid, Instituto Hispanoárabe de Cultura, 1980.

الصوائت

الصوت الإسباني	يقابله في العربية
i	كسرة، فتحة + ا، كسرة + ي
e	فتحة، كسرة، فتحة + ا، كسرة + ي
o,u	ضمة، ضمة + و

تجدر الإشارة هنا إلى أن عدم الانتظام هي الخاصية السائدة في ابن قزمان فيما يرجع إلى الصوائت. كذلك نجد استعمال هاء السكت، لكن في حالتين فقط.

الصوامت

الصوت الإسباني	يقابله في العربية
s	ش
č	ج
t	ت، ط
k	ك، ق (نادرا بهذه الأخيرة)
g	ق

4) المدخل إلى تقويم اللسان لابن هشام اللخمي

هذا اللغوي الذي مات أواخر القرن الثاني عشر الميلادي يجمع بدوره في مؤلفه هذا مجموعة من الكلمات اللاتينية والرومنسية تسمح لنا باستنتاج ما نحن بصدده من المقابلات في التمثيل اللغوي.

الصوائت

الصوت الإسباني	مقابله في اللغة العربية
a	فتحة، فتحة + ا
e	فتحة، كسرة، كسرة + ي
i	كسرة + ي
o, u	ضمة، ضمة + و

الصوامت

الصوت الإسباني	مقابله في اللغة العربية
s	ش، س، ص
z	ج
k	ك، ق
g	ق
t	ت، ط

5) كتاب «رايات المبرزين وغايات المميزين» لابن سعيد المغربي

وهو من أواسط القرن الثالث عشر الميلادي يحتوي على أسماء أماكن عدَّة، سنحللها كذلك من حيث كيفية التمثيل.

الصوائت

الصوت الإسباني	مقابله في اللغة العربية
e	كسرة، كسرة + ي، فتحة + ا
i	كسرة، كسرة + ي

الصوامت

الصوت الإسباني	مقابله في اللغة العربية
s	ش
ç	س
t	ت، ط
g	ق
k	ك،ق
l	لّ

6) الوثائق البلنسية التي نشرتها Ma. del Carmen Barceló

الصوائت

الصوت الإسباني	مقابله في اللغة العربية
e	كسرة، كسرة + ي، فتحة + ا
i	كسرة، كسرة + ي، فتحة + ا (حالة واحدة)
o,u	ضمة، ضمة + و

الصوامت

الصوت الإسباني	مقابلة في اللغة العربية
s	ش، س، ص
g	ق، غ
p	ب
k	ك، ق
z	ج
ľ	لّ

إننا بتقديم هذه الأمثلة يمكن أن نتبين بوضوح الغياب التام لنسق منتظم، حتى داخل كل حالة. وسوف لن نستغرب هذا الأمر إذا فهمنا أن الانتظام الذي حصل في تمثيل القرنين الخامس عشر والسادس عشر ناتج بالأساس عن الاستعمال المكثف للأدب الأعجمي بعد الحاجة الملحة التي أحس بها المدجنون نظراً للتراجع الذي عرفته العربية بينهم في بعض المناطق كما سلف الذكر، وليس لوضع مسبق لنظام تمثيلي. فإذا كنّا لا نجد انتظاما للتمثيل قبل القرن الخامس عشر، فلأن هذا التمثيل لم يكن قد وصل بعد إلى الكثافة اللازمة في الاستعمال حتى ينتظم انتظاماً محكماً. فكثافة الاستعمال إذن هي التي ستولد الانتظام. والدليل على ذلك هو أننا سنجد في الفترة الواحدة مجموعات لم ينتظم بينها النسق التمثيلي لأنها لم تكن تستعمله بالكثافة اللازمة بالمقارنة مع من كان لهم استعمال مكثف.

7) لنفحص الآن نصاً أعجمياً قد يرجع تاريخه إلى بداية القرن الخامس عشر حيث وجد في بلدة Ocaña مع مجموعة من المخطوطات العربية أحدها مؤرخ سنة 1428 (وخطها يشبه خط المخطوط الأعجمي) درسه Juan Martínez Ruiz.

هذا المخطوط الأعجمي يمتد عبر أربع صفحات وهو مشكول ويستعمل كثيرا من الرموز المكرسة في الأدب الأعجمي الناضج، ولكنه ما زال يعاني من بعض التردد كذلك الذي وجدناه في التمثيلات القديمة التي رأيناها سابقاً. وفيما يلي جدول مطابقات الأصوات في هذا النص :

الصوت الإسباني	مقابله في العربية
الصوائت	
e	كسرة، فتحة + ا
i	كسرة
o, u	ضمة، ضمة + و
الصوامت	
t	ت، ط
k	ك، ق
č	ج
s	ش

من الملاحظ هنا أن تواتر الاستعمال بين (الكسر) و(الكسر + ا) لتمثيل الصائت e هو نفسه. ويتردد استعمال هاء السكت في أواخر الكلمات المنتهية بالصوائت.

إن هذا المخطوط يدخل بطبيعة الحال ضمن ما نعتبره «أعجمياً». غير أننا لا نستطيع أن نصنفه مع تلك المخطوطات التي قلنا عنها إنها «ناضجة»، بل العكس، لأنه يختلف عنها كثيراً في التمثيل. إن صاحب هذا المخطوط الذي يقحم كذلك آيات قرآنية بعربية مشوهة، كما سيفعل بنو قومه بعده، لا يشكل النص العربي المقحَم، كما أن خطه رديء، وهذه كلها مؤشرات عن تسرب الضعف إلى لغته العربية.

فبالنظر إلى غياب الانتظام في عناصر هذا النص الشكلية وكذا إلى امتداده

عبر عدة صفحَات، يمكن أن نعتبره ممثلا لفترة انتقالية بين مرحلة تشتيت المعايير التي تمثلها مختلف الكتب العربية الأندلسية ومرحلة الانتظام وتوحيد تلك المعايير التي سنلاحظها ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

8) في محفظة بالخزانة الوطنية بمدريد تحمل الرقم 5073، توجد بين أشياء أخرى مجموعة من الوثائق الأعجمية تتضمن عقوداً للزواج وسداد حسابات، أقدمها تاريخاً يرجع إلى سنة 873 هـ/1468 م. وهذه العقود تعكس كل الرموز الخطية الأعجمية بانتظام لابأس به، خصوصا فيما يرجع إلى الصوائت. أما فيما يخص الصوامت، فالانتظام لم يكتمل بعد بنفس الطريقة لأننا سنجد مثلًا أن حرف الشين المشدد يخصص لكل من s وč (وأريد التنبيه هنا إلى أنني لم أجد أبدا الشين المشددة تمثل [č] لا من قبل ولا من بعد). ولكن سنجد أن الشين غير المشددة تخصص كما هو الحال دائما لتمثيل [s]. وسنجد كذلك استعمال هاء السكت الذي يذكرنا بمراحل سابقة.

إن هذه المحفظة تحتوي على عقود زواج عديدة، الشيء الذي يبين أن الأعجمية كانت قد تخطت الإطار الشخصي والضيق لمتطبب دجال معزول في مكان ما من قشتالة كصاحب دفتر الوصفات البخورية المنتمي لـ Ocaña الذي تكلمنا عنه سابقا، لتصبح في سنة 1468، وإن لم يكن قبل هذا، لغة ذات تداول إداري رسمي تكتب بها عقود زواج أو سداد الحسابات... الخ وتحمل الترخيص الملكي الرسمي والمعتاد كالذي نجده في ختام عقدة سداد الحساب بين أحمد البيطار ويوسف فارار من جماعة Agreda بأراغون والمؤرخة يوم 8 شتنبر من سنة 887 هـ (1482 م)، وبشهادة كل من علي كَشْتالّنْ ومحمد سعيد وبحضور الموثق إبراهيم بن محمد قَلْبِي. الإشارة إلى الترخيص الملكي معبر عنه باللغة العربية كما يلي : «محمد سعيد بن الدــ ولينـ ابراهيم بن محمد قلبي كاتب راتب في الربض المذكور كتبت هذا بأمر منه وبمحضر منه وبأمر وإذن ممن له ذلك ومن وجب له بأمر المولى السلطان دون فَارنْد أرشده الله تعالى وبه صح وثبت عنده بالواجب صح/صح صح صح».

كخاتمة عامة يمكن أن نقول ما يلي :

إن الترددات التي لاحظناها خلال عرضنا والتي تخص تمثيل الصوامت والصوائت الرومنسية تنم في الدرجة الأولى عن عفوية تلك التمثيلات وغياب نظام قار

للمقابلات، كما تبين غياب تناسب بين النسقين العربي والرومنسي، أي أن لكل من النسقين قيما صوتية خاصة يصعب التوفيق بينهما، وبالتالي يصعب تثبيتها بقيم قارة. يجب ألا ننسى أن العربية لا تملك إلا ثلاثة رسوم فقط (فتح ـــ كسر ـــ ضم) لتمثيل شتى صوائتها. فإذا كانت هذه الصوائت الثلاثة هي التي ستستعمل لمقابلة الدرجات الصائتية الخمس البارزة في الرومنسية، فمما لاشك فيه أنها ستلقى بعض الصعوبات. ولكن يجب أن نعترف كذلك بأننا لا نستطيع أن نتيقن من القيم الدقيقة التي كانت للرسوم الصائتية العربية قديماً. فلا يمكن الجزم بأن قيمة الفتحة كانت، على الأقل في الأندلس، تساوي ما نعرفه اليوم كقيمة لها، وأن الفتح + الألف كان يساوي فتحاً طويلا كما هو الحال اليوم. ويجب أن نتذكر كذلك أننا مازلنا إلى حد اليوم نقرأ الفتح + الألف كسراً في كلمة «مائة»، وهي الكلمة الوحيدة التي أعرف لها هذه الحالة، رغم أن حالات تمثيل الصائت e في اللغات الغربية بالفتح + الألف أمر معتاد في يومنا هذا ويكفي أن نتمعن في اسم الشركة البترولية الإنجليزية «شال» Schell. وفيما يرجع إلى تمثيل الصائتين الإسبانيين o وu، فلقد رأينا أنه لا يوجد تغيير خلال كل الفترات المذكورة، بما في ذلك فترة النضج. فكلا الصائتين مُثل بالضم دائماً، وهذا أمر لم أستطع أن أفهمه.

فيما يرجع إلى الصوامت، نلاحظ انسجاماً وتناسقاً أكبر من الذي رأيناه عند الصوائت :

1) نجد أن الشين قد خصصت دائماً لتمثيل [S] السنخية الأسلية (apicoalveolar) الإسبانية، ولو أننا سنجد كذلك السين تقوم من حين لآخر مقام الشين ولو بوتيرة أقل.

2) تخصص السين لـ[Ç] و[Z] في فترات ما قبل مرحلة النضج ولكن بعد ذلك ستخصص السين لـ[Ç] والزاي لـ[Z].

3) لقد مُثل الصوت الرومنسي المعطش [Č] بالجيم دائما دون تشديد إلى حدود فترة النضج، ثم سيضيف له الموريسكيون التشديد. وهذا راجع إلى ازدواجية التحقيق الذي يعرفه الصامت العربي المذكور. فإضافة التشديد مع الموريسكيين تَنمُّ عن ضياع خاصية تعطيش الصامت العربي بينهم كما حدث في مناطق كثيرة من المغرب. وسيخصص الموريسكيون الجيم غير المشددة لتمثيل الـ[J] الرومنسي

الاحتكاكي fricativo الحنكي المجهور الموجود في كلمات مثل fijo, mujer, jente إلخ.

4) في الفترة ما قبل النضج كان يتردد بين الطاء والتاء لتمثيل الصوت الرومنسي [T]، ولكن الموريسكيين في السادس عشر والسابع عشر سيخصصون التاء فقط، ونادرا ما سنجد الطاء لتمثيل الصوت المذكور.

5) لتمثيل الصوت الرومنسي الحنكي الشديد والمهموس [K]، سنجد التوجه السائد هو القاف في فترة ما قبل النضج والكاف في فترة النضج. إذا فهذان التمثيلان سيتعايشان دائما، ولكن مع ملاحظة الغلبة لأحدهما على الآخر حسب الفترة.

6) الصوت الرومنسي الحنكي المجهور [G] الذي سيخصص له الموريسكيون حرف الغين، كان يمثل في كثير من الأحيان قبل هذه الفترة بالقاف.

وأخيراً يجدر التذكير بأن الترددات التي عرفها الأندلسيون في تمثيل اللغات الرومنسية وكذا اللاتينية مصدرها خاصيتان أساسيتان تتميز بهما العربية عن الرومنسية:

أ) الأولى تخص الصوائت وتكمن في غياب التطابق بين اللغتين فيما يرجع إلى عدد الرسوم المخصصة لتمثيلها. فللعربية ثلاثة أشكال تقابلها خمسة في الرومنسية، مع اعتبار قابلية المد في العربية.

ب) وفيما يرجع إلى الصوامت، نجد في كثير من الأحيان أن أمام الصوت الرومنسي تتوفر العربية على إمكانيتين :

[T] : ت/ط [K] : ك/ق [Ç] : س/ص

أضف إلى ذلك ازدواجية التحقيق التي تملكها بعض الفونيمات العربية مثل :

ج : المعطش والاحتكاكي ق : المجهور والمهموس

ولكننا سنرى أن الاستعمال المكثف للأعجمية، أو بصيغة أخرى: للخط العربي لتمثيل الرومنسية بين الموريسكيين سيلغي أو سينقص تواتر هذه الازدواجية إلى حد كبير؛ وكثيراً ما يبطلها ويعوضها بعنصر واحد. إذاً فالسبب الذي أدى إلى توحيد النسق التمثيلي الأعجمي بين الموريسكيين يرجع بدون شك إلى كثافة استعمال النسق التمثيلي الأعجمي بين الموريسكيين، وليس إلى إعداد مسبق لنظام تمثيلي.

بعض الملاحظات عن المخطوطات العربية المكتوبة بالعجمية للمسلمين في قشتالة وأراغون

ماريا خيسوس بيغيرا
جامعة كومبلوتينسي بمدريد.

لقد حرَّرتُ نصَّ هذه المداخلة في مدينة الرباط، منذ حوالي أسبوع من توصلي «ببرنامج الندوة»، الذي مكَّنَنِي من ملاحظة وجود أربع مداخلات من أصْلِ إحدى وعشرين، يرتكز موضوعها على المخطوطات العجمية، التي تفضَّل الأستاذ حسين بوزينب، في مداخلته السابقة، بإلْقَاءِ الضَّوء على صفاتها بوضوح. فالمخطوط العجمي إذن يكتسي أهمية بالغة في هذه الندوة، ونصيبه يعادل تقريبا خمس مجموع موادِّها، مما يُضْفِي على هذا الموضوع أهمية بالغة. ويمكن تفسير هذه الأهمية بعِدَّة ظروف، أولها طبعا أن السادة المسؤولين عن الندوة قد خصصوا له محورا بارزا. وثانيا، إن عدد المتخصِّصين في الأدب العجمي هو نسبيا في تزايد ملحوظ. وهناك ظرف ثالث عميق الأثر، وهو أن هذا الموضوع قد غدا قريبا من الباحثين أكثر من أيِّ وقت مضى، رغم أنه ما زال أمامنا عدد مُعيّن من مراحلِ البحث. وألح هنا على لفظ «معين». ذلك أن معرفة المخطوطات العجمية لها خصوصيتها بالمقارنة مع المخطوطات العربية وما تطرحه من مشاكل. فمعرفتنا تعني الإحاطة بعدد هذه المخطوطات العجمية، وبموطنها، وبفتراتها الزّمنية، ومضمونها، وتَقَصِّي الظروف الخاصة بكتابتها من النّواحي التاريخية والاجتماعية والثقافية والديموغرافية وغيرها. وهذا يعني أيضا أنّ لِلْمخطوط العجمي وضعا متميزا عن باقي المخطوطات العربية المختلفة. لكن الأهَمَّ في رأينا أن نستخرج من هذه المخطوطات العجمية ـ وهي طبعا جزء من المخطوطات العربية ـ ما يفيد الباحثين. ولا يَتَيَسَّرُ ذلك إلّا بإعداد فهارس للمخطوطات

العجمية، وهو أمرٌ ممكن أحيانا، لكنه مع الأسف غير مُتَيَسِّر دائما بالنسبة لكل فترة تاريخية، مما يساعد على حلِّ بعضِ المشاكل. إنّ تحقيق هذا العمل – أعني الفهرسة – ضمن الإمكانيات الموجودة، وحسب أي منظور كان، سَيُتِيحُ لنا فَهْما أحسن للمخطوطات العجمية، مثل ما تَمَّ إنجَازُه في ميدان المخطوطات العربية على يد الأستاذ محمد المنوني مؤلف كتاب **تاريخ الوراقة المغربية**[1] فهو يقدم، من خلال نص عنوانه : **صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة،** معلومات قَيِّمَة عن إنتاج كتلة من المخطوطات في كل فترة، وعن أسماء النساخ وأساليبهم وأماكن تدوين النسخ، وتاريخها.

إن المشاكل التي تطرحها كتلة المخطوطات العجمية القشتالية والأرغونية، لا تكتسي – على العموم – طابعا حادا. فهي من ناحية الكَمّ قليلة نسبيا، وصل عددها المحسوب حاليا إلى مائتي (200) مخطوطة. وفترة كتابتها بالنسبة للمخطوطات المؤرخة محدودة، تمتد من منتصف القرن الهجري التاسع / الخامس عشر الميلادي إلى القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي داخل فَضَاءٍ جُغرافي محدود أيضا، يغطي منطقتين هما : قشتالة الجديدة، وخاصة منها أقاليم : Guadalajara وSegovia وToledo وCiudad Real وCuenca ومنطقة أراغون، ولاسيما أقاليم Zaragoza في المدن والقرى الممتدة على نَهْر إبره، وَرَوافده. وهكذا نجد، ضمن هذه الحدود الزَّمنية والجغرافية المذكورة، أن عدد المخطوطات العجمية المحسوبة، كما أشرت آنفا، هو مائتان، قام بحصر عددها اثنان من المُخْتَصِّين المشهورين في هذا الموضوع، السيدان Álvaro Galmés de Fuentes وR. Kontzi[2]، وهما اللذان قاما أيضا بإحصاء المخطوطات العجمية المحفوظة في المكتبة الوطنية بمدريد، وفي مكتبة المجلس الأعلى للبحوث العلمية بمدريد أيضا، وعددها ستون مخطوطا بالعجمية، تضم عشرين ألف ورقة، وتشكل وحْدَها نسبة الثُّلُث تقريبا من مجموع الأوراق العجمية الموجودة الآن في العالم. لكن إجمالي هذه المخطوطات يعتبر، على كل حال، عددا ضئيلا بمقارنته بسائر المخطوطات العربية الموجودة بإسبانيا. ولمعرفة هذا

---

(1) محمد المنوني، **تاريخ الوراقة المغربية** : **صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة،** الرباط، 1412/1991.

(2) R. Kontzi : «Aspectos del estudio de textos aljamiados», **Thesaurus**, 25 (1970), p. 3-20 et en particulier 8-9.

التراث العجمي المخطوط، أرى من الضَّروري القيَام بتحليل بعض المشاكل لقسم بسيط من هذه الكتلة العجمية المخطوطة. ولو أمكن تحقيق هذا العمل باستعمال طرق المقارنة العلمية، لساعدنا ذلك على الإحاطة بباقي الكتلة العجمية المخطوطة.

من الوسائل الفعّالة التي تمكننا من الإحاطة بأية كتلة مخطوطة، رسم خريطة تبين أسماء أماكن كتابة كل مخطوط وتاريخه، وعدد المخطوطات الموجودة في كل مكان. ولا نشك في فائدة استعمال هذه الوسيلة، وخصوصا إذا تحلّى مُسْتَخْدِمُوهَا بالرّوح العلمية، كما هو الحال في «مدرسة الحوليات» (Annales). وما نجده ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ عند Maurice Lombard، الذي رسم على الخريطة وضعية التّوزيع الجغرافي للخشب بإقليم البحر الأبيض المتوسط، في فترة مّا مِن القرون الوسطى، موضحا لنا أهمية رسم المشاكل على الخرائط «Cartographier les problèmes»[3].

وَإِدْرَاكاً منّي لفائدة هذه الطريقة ـ أي رسم خرائط تتضمن معلومات عن أماكن كتابة المخطوطات وبيان تواريخها باستعمال الإشارات المعروفة طبعا ـ ولخدمة المخطوط العجمي، أَنْجَزْتُ، حتى الآن، محاولتين جزئيتين : نُشِرَت الأولى في حوليات مؤتمر المخطوطات المنعقد في المغرب بالدار البيضاء[4]، وَعَرَضْتُ المحاولة الثانية في كتاب تكريم المأسوف عليه الأستاذ Bosch[5]. ويمكن ملاحظة نتيجة هذا العمل في الصورة رقم 1 التي تمثل ما أَمْكَنَ معرفته، إلى يومنا، عن وضعية الوثائق المدونة بلغات مختلفة : العربية والعجمية، اللاتينية والعربية، والقشتالية والعربية. ويَرْجِعُ تاريخ هذه الوثائق إلى الفترة الْمُمْتَدَّة من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، إلى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. ويصل عدد الموجود منها حاليا إلى ثمان وستين وثيقة، لها صفات مشتركة، دُوِّنَتْ كلُّها في منطقة أراغون، وبالجهة المجاورة لها من نابرّا في إقليم تطيلة داخل الثغر الأعلى القديم.

وإذا كانت الخريطة تمكننا من رؤية أماكن إنتاج الْمُدَوَّنَات وتَوَارِيخها، فإنّنا

---

(3) M. Lombard : «Un problème cartographié. Le bois dans la Méditerranée musulmane (VII-XI siécles)», **Annales, Économies, Sociétés, Civilisations**, 14 (1959) 234-254, et 4 maps.

(4) منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، 1990.

(5) **Homecaje al profesor Jacinto Bosch Vilá**, Granada, 1991, pp. 429-434.

نستطيع بواسطتها تحديد تاريخ بِدَايَة الكتابة بالعجمية. ويَطْرَحُ موضوعُ زمن ومكان الوثيقة مشكلتين، ساعدت البحوث التي أُنْجزَتْ في السنوات الأخيرة على تحْسِينِ أكْثر لِمَعْرِفَتِهِما. وهذا ما أشَرْتُ إليه في تقديمي للمخطوط المكتوب بالعجمية، والذي حققه فيديريكو كورينطي، والمُكْتَشَف حاليا في أوريا دي خالون بأراغون(6).

وإذا تمكنّا اليوم ـ من خلال تواريخ هذه الوثائق ـ من التعرف على تأريخ الكتابة بالعجمية، التي بدأت بكثافة هامة حوالي منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، فإنّ بعضَ المشاكل لا زالت مطروحة علينا، مثل المخطوطات العجمية غير المؤرخة، وعددها كثير. ونحن عَاقِدون الْعَزْمَ على إيجاد صيغة مُمْكِنة لتعريفها، بعد أن نُتِمّ إعداد لائحة المخطوطات المعلومة المكان والزمان. كما نأمل في استخدام كلّ الإمكانيات الْمُتَاحَة لعقد مقارنة بين صفات المخطوطات التي نعلم مكانها وتواريخها، والمخطوطات المجهولة. وإنّني مُنْكَبَّةٌ الآن(7) على إعداد لائحة بالإشارات، وخريطة مناسبة، تَخُصّان جميع الوثائق المعروفة للمدجّنين، آملة أن أستطيع ـ اعتمادا على اللائحة والخريطة المذكورتين ـ اسْتِخْراج بعض المعلومات المتعلقة بالمخطوطات التي نجهل تاريخها ومكانها، بعد مقارنتها بتلك المخطوطات المعروفة داخل الخريطة.

إن جميع المخطوطات العجمية هي ابنة المخطوطات الأندلسية شكلا ومضمونا. وهذا مهمٌّ جدا لتحديد محتوى المخطوطات العجمية وبعض أوصاف شكلها أيضا. وأسوق هنا مثلا تُبَيِّنُه الصّورتان عدد 2 و3. هذه أوراق كتاب التفريع في الفقه لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الجلاب البصري المالكي. فمضمون وشكل هذه المخطوطة يَنْدَرِج ضِمْن مَوضوعات ومظاهر المخطوطات الأندلسية، باستثناء لغتها التي تَنْتَمِي إلى القشتالية باستعمال الخط العربي، وهذا يعني أنها مخطوطة عجمية. وتَمَّ نسخُها «يوم الإثنان، لثمانية يوم من شهر مرس، موافق في سبع وعشرين من الهلال ربيع الأوال، عام ثلثة وتسعين وتسعمائة، على يد المعترف بشكر ربه، يسمى اشقر بن» [أو عيسى بربض] حسب كلمات نهاية النُّسخة. وهي مكتوبة بالخط العربي.

(6) **Relatos píos y profamos del ms. aljamiado de Urrea de Jalón**, éd. por F. Corriente y presentación por M.J. Viguera, Zaragoza, 1990.

(7) M. J. Viguera : «Los mudejáres y sus documentos árabes», **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée** (تحت الطبع) 1992.

كما نجد فيها عددا من كلمات عربية أخرى للتعبير عن بعض الاصطلاحات الدّينية والفقهية. أما سائر الكلمات فهي مكتوبة باللغة القشتالية. بقي أن أقول إن هذا المخطوط هو عبارة عن مؤلف ضخم يضم أكثر من تسعمائة صفحة[8].

لقد قلنا إن المخطوطات العجمية ابنة للمخطوطات الأندلسية، وهذا في حَدّ ذاته يكتسي أهمية بالغة، لأنه يساعدنا على معرفة أحسن للمخطوطات الأندلسية. ونلمس هذا في مخطوطة التفريع التي تشكل مثالا نادرا، لأن نسخها قليلة جدا، لا يتجاوز عددها حاليا أربعة. ذكر بروكلمان منها اثنتين بالعربية : أولاهما في لندن، وثانيتهما موجودة في الجزائر. واثنتان بالعجمية موجودتان عندنا في مدريد، يمكن للباحث أن يستغلّ مُعْطَياتِهِما في تحقيق الكتاب المذكور، والتّعمق في فَهْمِ بعضِ الأحوال الثقافية[9].

إن علاقة المخطوطات الأندلسية بالمخطوطات العجمية هو – على العموم – أمر بديهي، معقول وحقيقي. ولكن عندما نتناول المخطوطات العجمية نجد أغلبها يعوزه الشّكْلُ والأسلوب. وأعُود بأنظاركم إلى الْمَثَل السّابق في الصورتين عدد 2 و3 لنلاحظ أن أسلوب هذه المخطوطة لا يتميز بالجودة ولا بكتابة مُنْسَجمة. ويَرْجِعُ سبب ذلك إلى انخفاض مستوى خبرة الكُتّاب المدجّنين والموريسكيين الذين عاشوا في ظل أحوال ثقافة منحطة خاصة بهم، يرْمُز إليها أيضا شكلُ مخطوطاتهم. فالصّفات التي تحملها مخطوطات كلّ فترة تاريخية تعكس بعضَ مظاهرِ ثقافة عَصْرِها. ومن هنا نستدل على مَدَى العلاقة الموجودة ما بَيْن أشكال المخطوطات والمستوى الثقافي لكل فترة كما هو معروف، وكما تبرهن عليه أيضا المخطوطات العجمية.

لا أتذكر نسخة ممتازة توجد بين المخطوطات العجمية، والْحَسَنَة منها نادِرَة، وهي تتعلّق خاصة بكُتُب الدّين والفقه. وكمثال على ذلك نرى في باب الصلوات بصورة الصفحة عدد 4 أنّ عَالِماً أو فقيها من أهل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[10] قد كتب ببراعة غريبة، مُسْتَعْمِلًا العجمية والعربية معا. فمن

(8) J. Ribera, M. Asin, **Catálogo de manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta**, Madrid, 1912, n° 33.

(9) أشار الأستاذ J. M. Fórneas إلى قيمة هذا المثل في محاضرته بمؤتمر الثقافة الأندلسية (إشبيلية، 1991). وهو الذي بدأ دراسة هذه المخطوطات.

(10) مخطوطة رقم 20 في الفهرس المذكور بالهامش 8 قبله.

الممكن أن يكون هذا العالم من القليلين الذين يُحسنون العربية بمنطقة أراغون في هذا القرن المتأخر. كَتَبَ : «عبد الله بن مسعود دُنْذَا دِشُه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أوْلى النّاس بي يوم القيامة أكثرُهم عليّ صلاةً [كذا بالعربية، ويزيد الكاتب بالعجمية مُتَرجماً الجملة وشارحا لها] كِيَارَا ذِرْ كَانِشُه عَبْد اللّه بن مَسْعُود كاذِشُه لنبي محمَّد صلّى اللّه عليه وسلم لَمَشْ رَزُنْ بُرْكِيَانْ يُشَارَا أَبْلِغَاذُ اَلْدِيَ ذَا لَجُدِسِيُه شَارَ بُّرْ أَكَالْ أَ أَكَالْش شَلْتَسِيُونْ فَرَنْ شبْرَامِه» [إلى آخره].

لا شَكَّ أنَّ كَاتِب هذه الصفحة على معرفة باللّغتين العربية والقشتالية، باستثناء ما نلاحظه من مستوى خطّه المُتوسط. ومن أسباب هذا أن وضْعَ المدّجنين ـ كالحال بالنسبة للموركسيين فيما بعد ـ كان موزعا بين لُغَتَيْن وكِتَابَتَيْن. الأولى منهما، وهي العربية، كانت لغة محترمة لديهم؛ لكنها، على كل حال، كانت شِبْهَ مَنْسية، رغم ما أبْدَوْه من إرادة لحفظها بكل قوّتهم من خلال الكتابة باللغة العجمية، واستعمالهم لحروف عربية على الأقل، ومن عناية كبيرة بالكتابة، مستغلين كل ورقة بيضاء لملئها بتمارين الكتابة، كما نلاحظ في الصورة عدد 5 [من مخطوطة J. XXIV].

إن وضْعَ المدجّنين، من النّاحية اللغوية، بين خطّ عربي شبه مَنْسي، وخطّ قشتالي شبه حقير من طرفهم، كان له انْعِكاس سَلْبِيّ على مستوى مَهارَتِهم في الكتابة بالنسبة لكلّ الوسائل الأربعة التي استعملوها في تحرير مُصَنَّفَاتِهم الموجودة، وهي :

1) لغة عربية وحروف عربية، كما نرى في الصورة 6[11].

2) لغة قشتالية وحروف عربية، كما نرى في الصورة 6 أيضا.

3) لغة قشتالية وحروف لاتينية، كما نرى في الصورة 7، وهي ورقة من أوراق مخطوطة بالعجمية[12]، وفي هذه الورقة نجد نصّ عَقْد بين جون مسعود وراعي غنمه، في قرية Almonacid من إقليم سرقسطة، في منتصف القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

(11) مخطوطة رقم 20 في الفهرس المذكور قبله، ص. 64.

(12) مخطوطة رقم 14، في الفهرس المذكور قبله.

4) وتوجد أيضا لغة عربية وحروف لاتينية، كما نرى في الصورة 8؛ وهي ورقة من المخطوطات الْمُكْتَشفة في مدينة Ocana من طليطلة. ويقول كَاتِبُها[13] :

Alahuma çaly ála malaycatíca almucarrabina
gua ála anbiayca gua almurçalyna gua

ála aly taática ajmayna myna ahly
çamaguati gua lardyn afdala açalaguati
gualarda taçlyman gua anfaána bi çalati
álayhym ya rabi ylalamyna.

لا نتوفر على أمثلة كثيرة للنموذجين الأخِيرَيْن، أعْنِي نُصوص مُدَوَّنَة باللغة القشتالية وحروف عربية، وأخرى مكتوبة باللغة العربية وحروف لاتينية. ولكن أمثلتها الموجودة هي بِمَثَابَةِ رُموز لعَالَمٍ لُغوي مختلط، لا نَجد فيه كُتَّاباً مُمْتَازين، ولكنهم كانوا كُتَّاباً استعْمل بعضُهم الأبجديتين بمعاشرة عجيبة كما نرى في نفس الصفحة رقم 9، حيث نجد عبارة muy manifico señor والبسملة. ونلاحظ أيضا أن الورقة كلها مكتوبة بالعجمية[14].

لقد رأينا من خلال كلّ هذه الصّفحات المُصوّرة مُستوى الكتابة. وإذا أمْكَن وصْف هذا المستوى في كتلة المخطوطات العجمية بأنها غير مُمْتازة، فإنّنا نجد اختلافا مُهمّاً في المستوى العام بين دائرة الكتابة العامة، أي المخطوطات التي تَسْتَعْمِلُهَا عامّةُ النّاس، وبين دائرة الكتابة الخاصة، وهي التي يقتصر استعمالها على الكاتِب وحده. ولهذا الاختلاف دَلاَلاَتٌ تُفَسِّر لنا وضعيةَ الثّقافة والكِتابَة في مُجتمع مّا. وأشيرُ هنا إلى بعض الأمثلة لتوضيح هذا الاختلاف المذكور. فالصّورة رقم 3 أو رقم 4 هي نموذج للكتابة للآخرين، ونلاحظ فيها مراعاة الانسجام النّسْبي، والسُّطور المُعْتَدِلة، والهوامش الفارغة بما فيه الكفاية. في حين تُبْرِزُ الصّورة رقم 9 مثالا عن نوع الكِتابَة الخاصّة بالمُؤَلِّف وحده. ومن خلال وجود هذا التّبايُن في المظاهر الكتابية بين الدائرتين المخطوطتين المذكورتين ـ أي الكتابة العامة والكتابة الخاصة ـ يمْكِنُنا أن نستنتج بأنّ الكِتابة ما زالت حيَّة نسبيا في ذلك العصر، وقد اختَصَّتْ بها

(13) تحقيق لـ J. Albarracín في مجلة **Anaquel de Estudios Árabes** (رقم 4 ـ 1993، تحت الطبع).

(14) تحقيق لـ M. J. Viguera في :

Estudio dedicados al profesor J. Martínez Ruiz, Granada, 1991, p. 140.

طائفةٌ من المُحْتَرِفِين، وهذا يَعْني أن الكتابة كانت في هذا المجتمع واحدة من الْحِرَفِ الْمُمَارَسَة، وهو أيضا ما نَعْرِفه من خلال بعض المخطوطات التي تُشِير أحيانا إلى أسماء كُتَّابِها[15]. كما نستطيع أيضا استِخْدام الاختلاف المذكور كَمِحْور لِعَمَلِيّة تَصْنِيف المخطوطات، مع الاستِعَانة بكلّ المعلومات عن تاريخ الورق في القرنين التاسع والعاشر للهجرة / الخامس عشر والسادس عشر للميلاد[16].

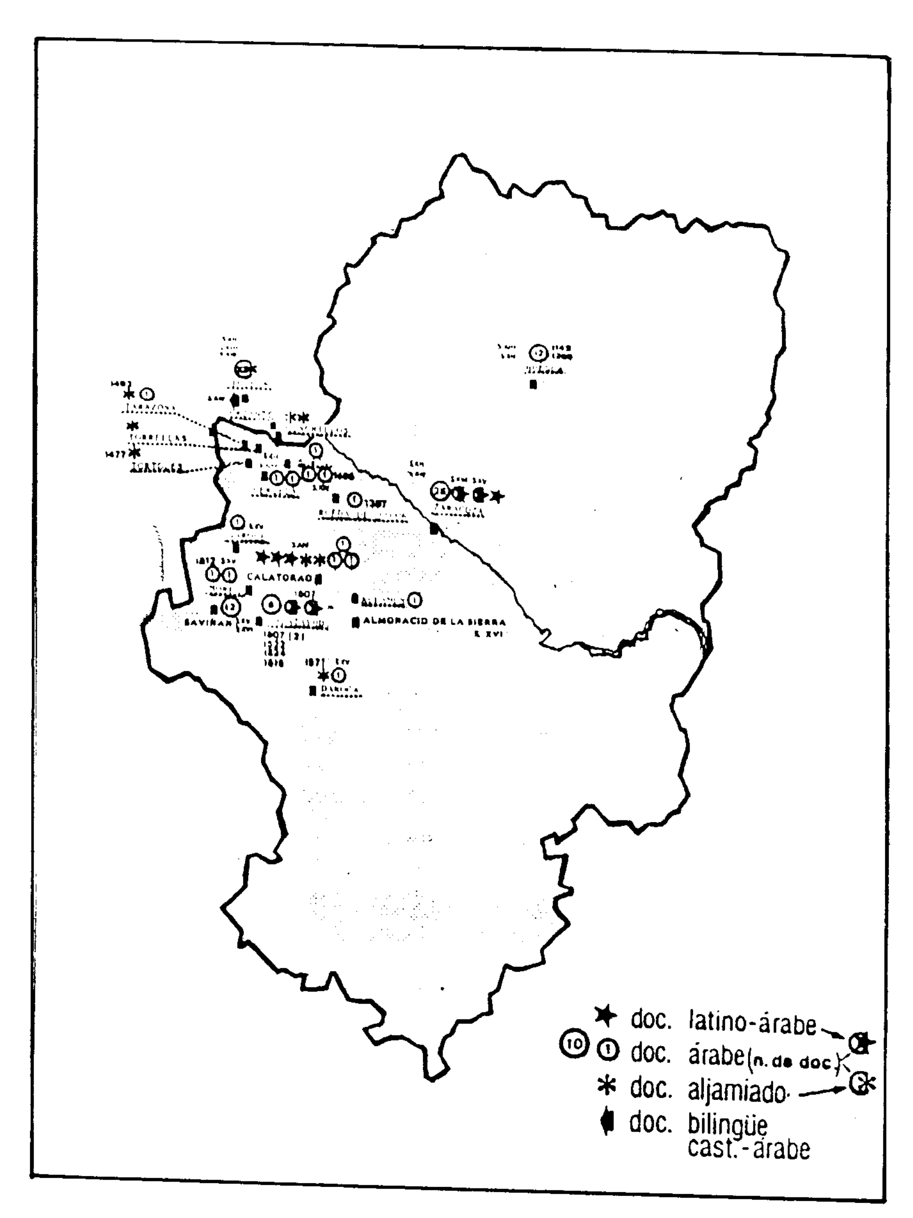
أخْتِم مُدَاخَلَتِي هذه، فأقول : إن الجهود التي بُذِلَت والتي ما زالت جَارِيةً حاليا من طرف مختلف الباحثين حول هذا الموضوع الْهَام للمخطوطات العجمية، التي حظيت بإحدى محاور هذه الندوة العلمية القَيِّمَة، أقول، إن تلك الجهود قد ذَلَّلَتْ كثيرا من المشاكل التي كانت تُعِيقُ البَحث في هذا النوع من المخطوطات. ومن واجبنا الآن أن نعترف، صَادِقِين، بما لِمِثْلِ هذه النَّدوات من فضل كبير في جعل المهتمين بها أكثر قُرْباً من معرفة هذا النّوع الخاص من التراث المخطوط، مما يستوجب الإعْرَابَ لكم عن شكرنا الجزيل.

---

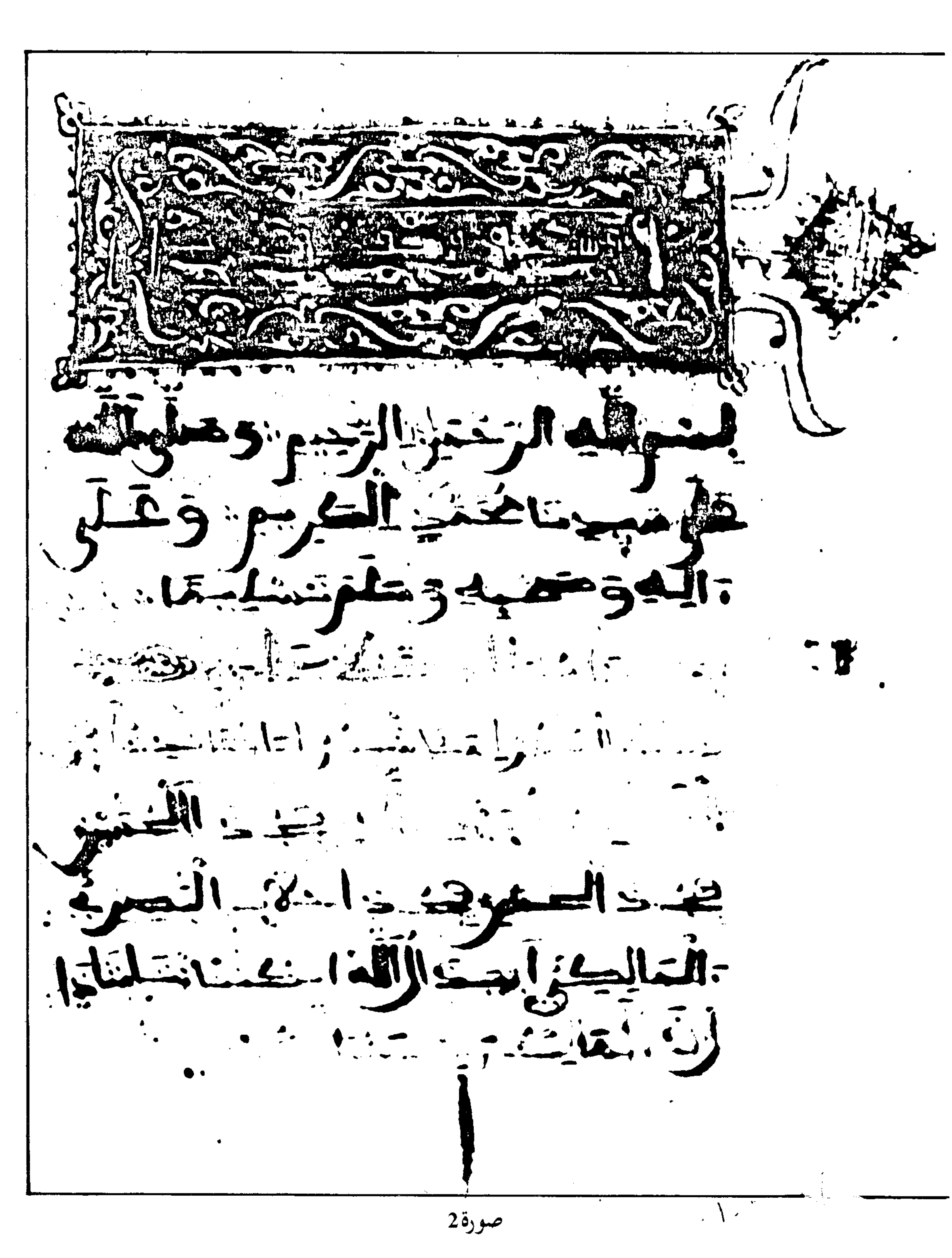
(15) بيغيرا في التقديم المذكور قبله (في الهامش 6) : انظر ص. 12 منه.

(16) O. Valls i Subirà, **La historia del papel en España.** Siglos XV-XVI, Madrid, 1980.

ANNEXES



صورة 1


بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله
على سيدنا محمد الكريم وعلى
آله وصحبه وسلم تسليما

صورة 2

صورة 3

عبد الله بن مسعود د نذا دشه قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم ان اولى الناس بي يوم القيمة أكثرهم

علي صلاة بيان ادر كاذ شه عبد الله بن مسعود

كاذ شه لنبي محمد صلى الله عليه وسلم لمش زرن بش

بيان بشار ابلغد الدية دالجد سيه شار بز اكال

أكالش كامش شلتسيون ور نه شبز امه الكون بلس غر

ميس املغر شذ اكاشما بيانه ابغر ذ اغلي يكد النبي

محمد صلى الله عليه وسلم ايباشا مش اذ ارزشار به ميد لوانغد

االمنيد ث بشريه كنبيار اند اوبز كاشش كششش

غوا زنه مش شالاشتي بلا دش طا امتش الش كشش

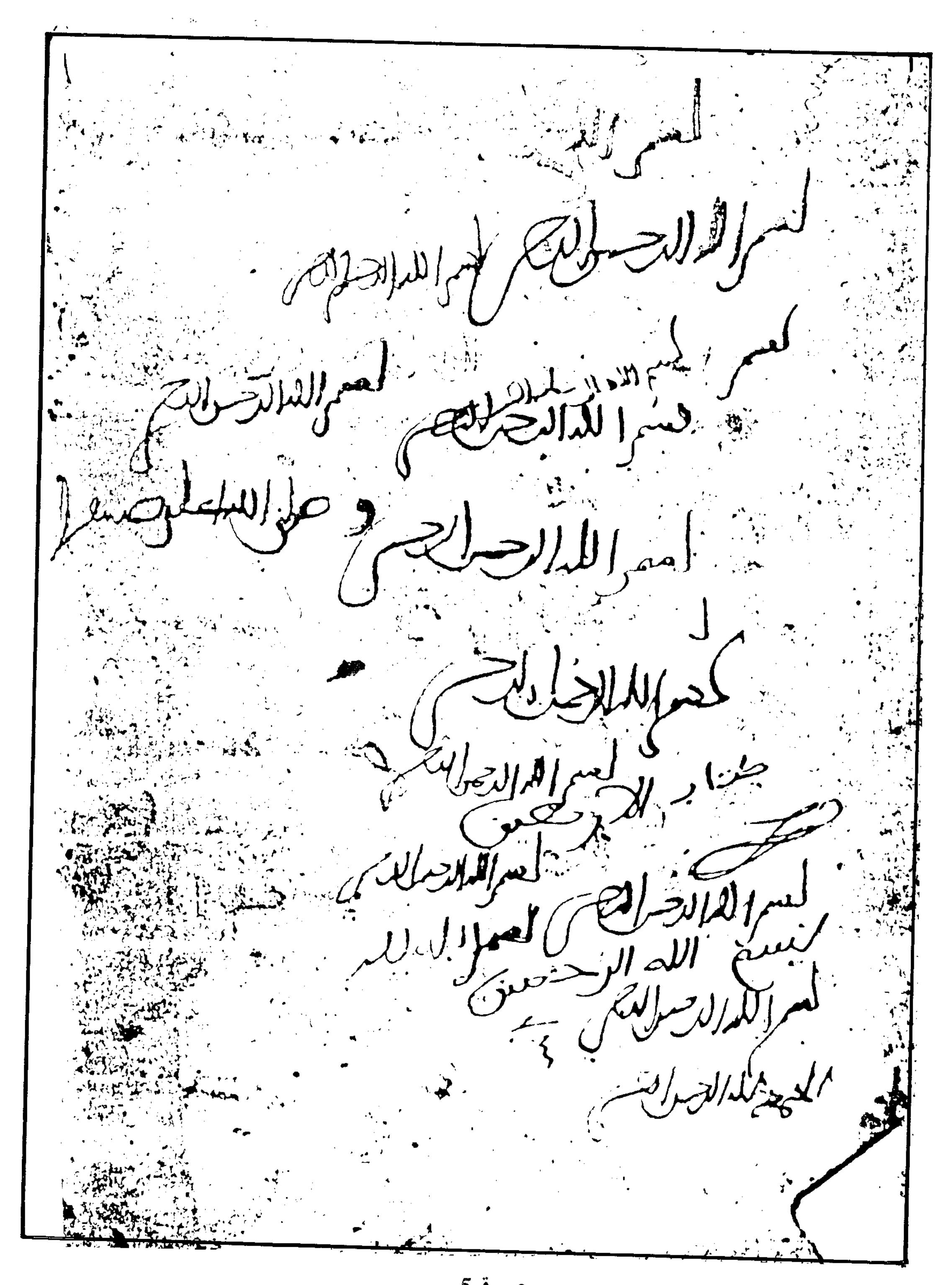
ساالاشتير بلا دش تاز غنمه لش ابزكه شنه الله عز وجل

بزالحوله شالنوراش ذابا مش

تمر اكاشه بشو كنه امور ابلزار االاغرية اذر

بلزار اند نوا شترمش كشش اشله ميتر ابرا بنتاش

صورة 4



صورة 5

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله [illegible]

قال الشيخ الأجل الأستاذ

العالم العلم الزاهد الورع

مصباح السنة ومحيي

الإمام أبو عبد الله محمد

بن محمد الفخار الجذامي

رضي الله عنه في تمشيته

على كتاب الجمل لأبي القسم

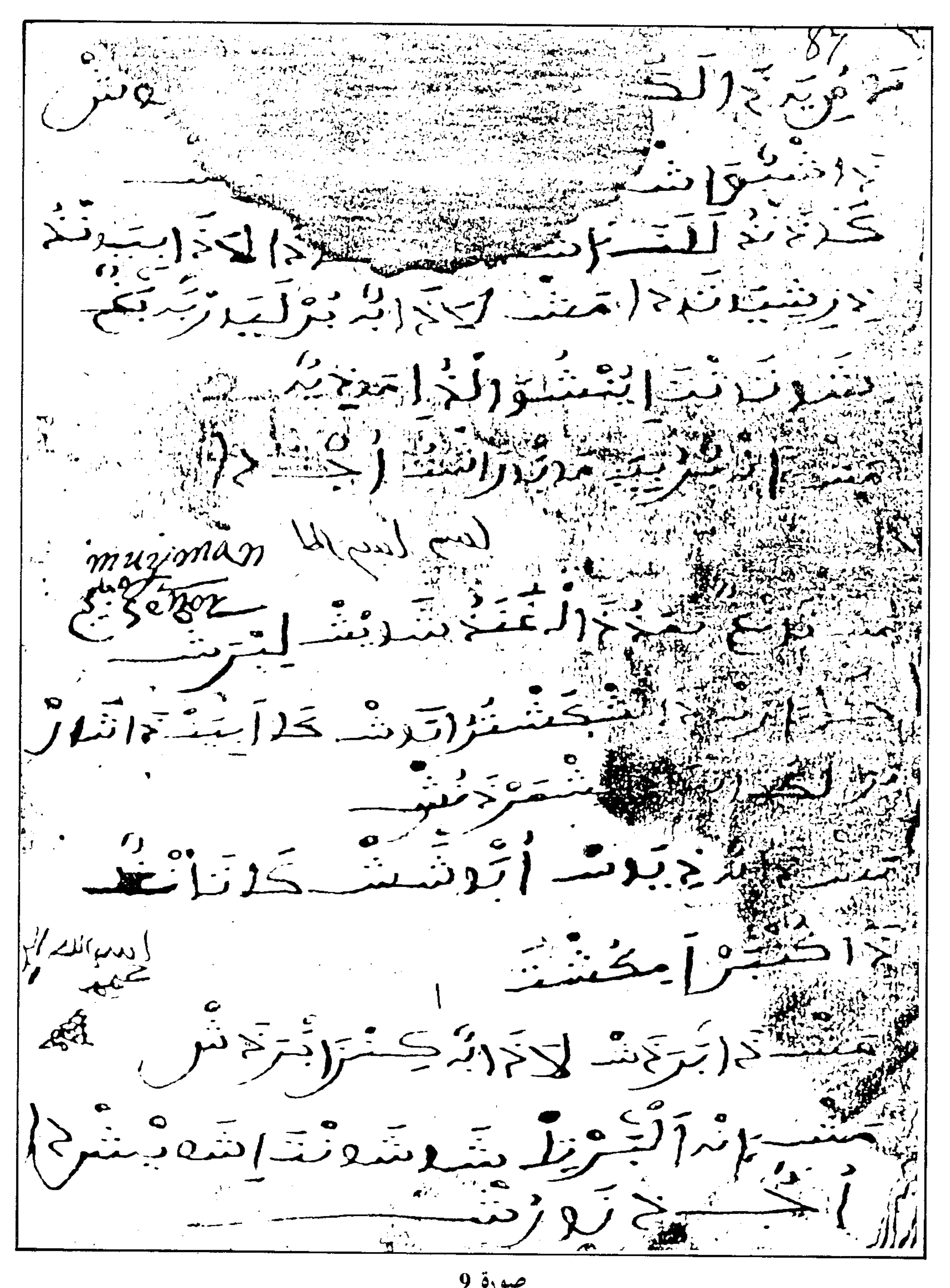
على الصلاة [illegible]

صورة 6

صورة 7

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله

صورة 8



صورة 9